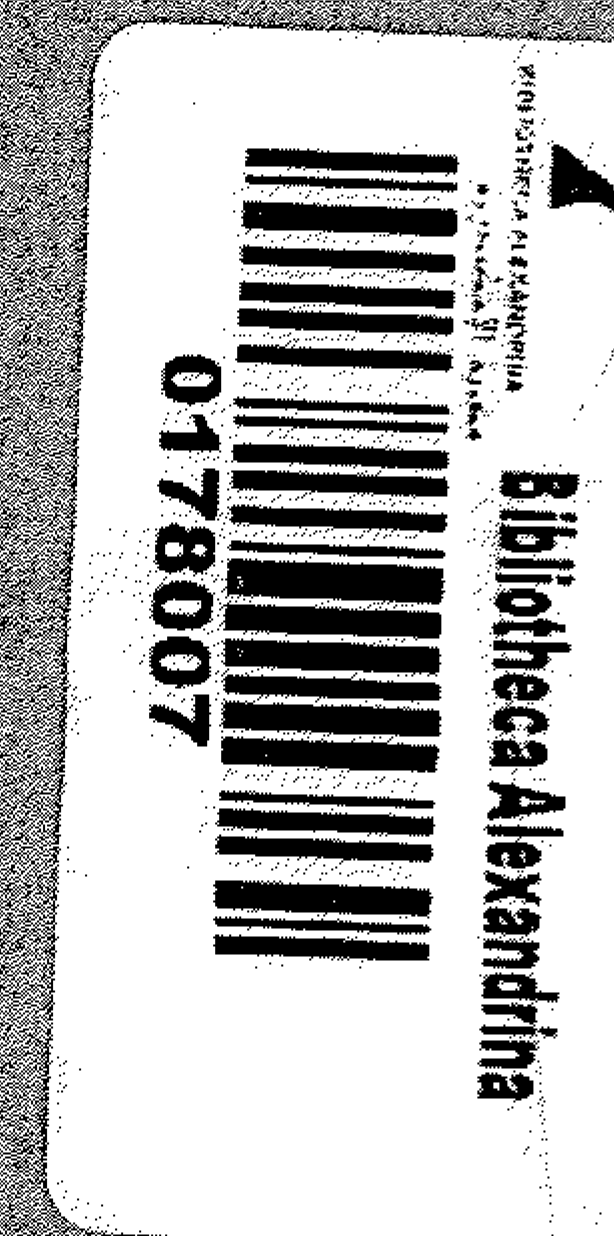
دراسات في التربية

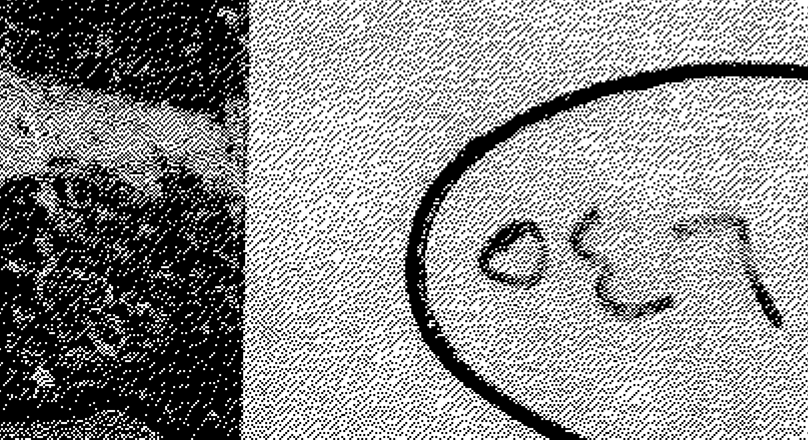
التربية الأساسية

بقلم غاندي

ترجمة الدكتور محمد الشبيني







دار المعارف بمصر


جامعة الإسكندرية

التربية الأساسيّة

دراسات في التربية

التربية الأساسيّة

تأليف
المهاتما غاندى

ترجمة
الدكتور محمّد الشبيني



دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

المحتويات

مقدمة

فى هذا العصر الذى تتصارع فيه القوى الغربية والشرقية بما فيها من فلسفات واتجاهات ثقافية واجتماعية ، واقتصادية ، للسيطرة على العالم ، انبعثت كلمة حق تنادى وتجاهد فى سبيل عزة الشعوب وتدعيم كيانها عن طريق فلسفة خاصة بها ، وسياسة رشيدة تنتهجها ، تنبثق من تقاليدها ، ومثلها العليا ، وآمالها ، وإمكانياتها دون أن تفرض عليها من دولة أخرى .

ولم تكن كلمة الحق هذه قد صدرت عن عاطفة طارئة ، أو شعور وقتى ، بل إنها كلمة سجلت نتيجة لإحساسات الشعوب العميقة ، وآمالها الخالدة فى تدعيم استقلالها والنهوض بمجتمعاتها .

فالجمهورية العربية المتحدة والهند وغيرهما من الشعوب الناهضة تعمل جاهدة بإيمان وعزم على بناء كيانها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى من وحى إرادتها ، وتراثها العميق ، وإمكانيات بيئتها . فهى شعوب قد وطدت العزم على ألا تستورد فلسفتها ، أو نظام الحياة فيها ، أو تشريعاتها من الخارج — بل على العكس من ذلك فهى تعمل بإيمان وإخلاص على خلق هذه الفلسفة ، وابتكار نظمها ، وتخطيط التشريعات التى تؤدى إلى تحقيق آمال شعوبها والنهوض بها .

وقد رأيت فى هذه الآونة أن أقدم للقارئ العربى إحدى مؤلفات غاندى التى تعبر أصدق تعبير عن قوة إرادته ، وعزمه الأكيد على توجيه سياسة التعليم فى الهند وجهة تتلاءم وحاجات شعبها ، وآمال أبنائها فى التحرر من كل أثر من آثار الاحتكار الثقافى الذى فرضه الاستعمار عليها .

والكتاب ثمرة جهود وتجارب لا حد لها قام بها غاندى فى الثلاثين عاماً التى سبقت وفاته فى قرى الهند مبشراً بنوع من التربية الأساسية التى تستهدف

تكوين جيل جديد من الأطفال والشباب يؤمن بشعبه ، ويجاهد من أجل تحرره من الاستعمار الاقتصادى والسياسى والثقافى الذى فرضه الإنجليز على على الشعب الهندى .

عمل غاندى بقوة صادقة وإيمان راسخ على إنشاء المدارس والمعاهد التى تتبع مناهج وأساليب التربية الأساسية ، وعقد لذلك برامج لتدريب الإخصائيين والمعلمين ، وندوات واجتماعات لغرض الدعوة إلى تكوين المواطن الصالح الذى يجعل تعليمه أداة من الأدوات الإيجابية النافعة التى يستعان بها فى رفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لأسرته ومجتمعة المحلى والقومى .

وبعد هذه التجارب العديدة والجهود المتواصلة وجد غاندى أن التربية النظرية التى تدعو إلى فرض معلومات على الأطفال والكبار لحفظها وترديدها لن يمكنها خلق هذا المواطن الصالح الذى تحتاجه الهند فى تدعيم استقلالها والنهوض بمجتمعاتها — بل وجد أن التربية الأساسية التى تدعو إلى ممارسة الأطفال والشباب للحرف والمهن ، والتزود عن طريقها بخبرات عملية وعلمية لها وظيفة رئيسية فى حياة المجتمع ، هى خير وسيلة يمكن السير على نهجها لتكوين هذا المواطن الذى تعتمد عليه الشعوب الناهضة فى تحريرها ورفع مستوى الحياة فيها .

ولا شك فى أن فلسفة غاندى فى التربية الأساسية تتجاوب أشد التجاوب مع نهضتنا الحديثة فى التربية والتعليم التى تستهدف غرس بذور الوطنية ، والاعتماد على النفس ، واحترام العمل اليدوى فى كل مواطن عربى .

ويعتبر هذا الكتاب خير مرجع للقادة الذين يعملون فى ميدان التربية والتعليم ، والإخصائيين فى النهوض بالمجتمعات الحضرية والريفية ، والمعلمين الذين يحرصون على أن ينبثق التعليم من حاجات المجتمع ورغبته فى النهوض الإقتصادى والاجتماعى والثقافى على السواء .

المترجم

كلمة المحرر

ولو أن المهاتما غاندى دعا فى السنوات القليلة الماضية إلى اتباع نوع معين من التربية فى الهند ، إلا أنه منذ أمد بعيد كون لنفسه أراء ثابتة وأفكاراً ثورية فى التعليم .

وكما تحدث إلينا بنفسه ، فإنه منذ سنين طويلة كان دائم التفكير فى تحقيق فلسفته فى التعليم فى مدارس الهند ، هذه الفلسفة التى قام بتنفيذها فى المدارس الملحقة بمزرعة تولستوى التى أنشأها فى جنوب أفريقيا . منذ ذلك الوقت اتبع غاندى نفس هذا النمط من التعليم عندما استقر به المقام فى مستعمرة العمال والأطفال فى الهند . فالتربية الجديدة Nai Talim التى دافع عنها بحرارة وقوة فى سنة ١٩٣٧ أثناء وجوده فى الهند لم تكن حدثاً جديداً بالنسبة له ، وذلك لأنه فى خلال الثلاثين عاماً الأخيرة من حياته عمل على اختبار هذا النوع من التربية عن طريق الممارسة العملية فى مجموعات صغيرة ، ثم وجدها نافعة مفيدة .

فإن التربية النظرية الخالصة التى أدخلها الإنجليز فى الهند، وكان أساس التدريس فيها اللغة الإنجليزية قد استهدفت تزويد الحكومة بالموظفين ولم يكن الغرض منها إثارة عنصر المبادأة فى المواطنين أو تدريبهم لاكتساب مهارات فى الإنتاج . وقد اتضح جلياً أمام عينى غاندى أن مثل هذا النوع من التربية لن يؤدى فقط إلى فصل المتعلمين عن بقية الشعب ، بل يؤدى أيضاً إلى عواقب أخرى وخيمة حيث يجعل تعليمهم غير ذات قيمة عملية مفيدة للناس . وكان نتيجة ذلك أن عمل الإنجليز على هدم المنظمات القروية الموجودة فى الريف الهندى من قبل عهد الاحتلال وإغراق القرى بالمنتوجات الأجنبيةالمصنوعة فى الخارج . وهكذا أصبح القرويون فى الهند غير منظمين فى حياتهم بل أكثر

من ذلك فقد فقدوا مهنهم وحرفهم ، وأحسوا بالعجز واليأس ، ثم انغمسوا تدريجيا فى الفقر والبطالة والعزلة . وكان المتعلمون من الهنود ينظرون إلى نشأتهم التعليمية على أنها وسيلة فقط للنهوض بمستواهم الأدبى والمادى ، ولو كان هذا التعليم على حساب الفقير . ومن ثم وجد غاندى أن الطريقة الوحيدة التى تنقذ الشعب من هذا الدمار الذى يحل به هى إنعاش الحياة الاقتصادية فى القرية وربط عجلة التعليم بها . فالتعليم إذن كما وضحه غاندى ، ينبغى أن يبنى على أساس الحرف الموجودة فى القرية والتى يتدرب عليها الطفل القروى ليصبح منتجاً . وعلاوة على ذلك فإن غاندى كان يهتم كثيراً بالطفل من حيث هو طفل، وجل ما خشية هو أن يتحول الطفل كلية إلى أداة ماهرة لنهايات اقتصادية . وبناء على ذلك، ولو أن التعليم ينبغى أن يبنى على أساس الحرفة، إلا أن غاندى قد أصر على وجوب تدريب ذهن وقلب الطفل بالمقدار الذى يدرب به يديه . وبدلا من جعل التعليم تقليدياً ، وتدريسه بلغة أجنبية غير مرتبطة بالحياة فى الهند كما كانت الحال قبل ذلك ، فإنه ينبغى أن يوضع له هدف محدد ، ويدرس باللغة القومية ، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الاجتماعية والثقافية للطفل .

ولو أن غاندى أمل فى جعل التعليم وسيلة من وسائل إنعاش الحياة الاقتصادية والثقافية التى كانت على حافة الهاوية فى الهند ، إلا أن هناك عاملا آخر قاده إلى أن يبشر بالتعليم عن طريق الحرفة . فقد آمن غاندى بأن الحضارة التى تعتمد على الآلة ، كما هو واضح تماماً فى العالم فى الوقت الحاضر ، تجر وراءها العبودية والاستغلال فى قطاعات شاسعة من الدولة وخاصة ما هو موجود منها فى المجتمعات المتأخرة صناعياً . هذه الحضارة الآلية تبعد كل البعد عن الاتجاه الصحيح فى توجية الشعوب إلى الحرية والاستقلال الذاتى ، وأنها تقود العامل خاصة والجنس البشرى عامة إلى الاتكال والاعتماد الكامل على دولة معينة أو على فئة قليلة من الرأسماليين الذين يسيطرون على الصناعة . وأكثر من ذلك فإن هذه الحضارة تخلق هذا التنافس الذى لا نهاية له بين الشعوب ، والذى

من جرائه تشتعل الحروب العالمية وتلحق المصائب والهدم بها .

فى ضوء هذا ، أحس غاندى بأن الأمل الوحيد لإنقاذ الشعب الهندى من محنته هو تلافى الإنتاج الآلى على مستوى واسع ، وأن تبنى حياتنا الاقتصادية على أساس الإنتاج المحلى فى القرية بدلا منه . وأكد أن تحقيق هذا الأمل يقودنا إلى السلام والحرية ، علاوة على أنه يزيد من تنمية قوة وإمكانيات العامل . أما من ناحية الحرية وتنمية الفرد الهندى ، رغم ضعفه وقلة حيلته ، فإن غاندى يرى أنهما أكثر أهمية فى حياة الإنسان من مضاعفة الإنتاج عن طريق الآلة . لذا تطلع غاندى إلى اليوم الذى تصبح فيه حياة القرية مبنية على أساس من إنعاش الصناعات الريفية وتحسين أساليب الزراعة ، ويعمل القرويون متعاونين من أجل رفاهية الجميع بألفة وسلام . أما التعليم الذى من شأنه أن ينشأ الأطفال نشأة طيبة تتلاءم مع هذا الأمل فى المستقبل ، ينبغى بالطبع أن يحقق عن طريقة الحرفة . هكذا يتضح أن النظام التعليمى الذى يدعو إليه غاندى يعتمد على عدم العنف ، والحب للحرية والأخذ بأيدى الفقراء الذين لا مأوى لهم .

إن العالم الحديث يتشدق ببلاغة عن الحرية والديمقراطية والسلام — ويخيل إلينا أنه لن ترى هذه الحرية والديمقراطية والسلام النور إلا بعد أن ترسو على قواعد راسخة من الإيمان بوضع نظام اقتصادى صالح . وقد وجد غاندى بقوة بصيرته ، أنه إذا بذرنا البذور الطيبة فى المجال الاقتصادى فإننا نجنى الكثير مما زرعناه . فإذا كان التنظيم الاقتصادى لا يستهدف إلا إنتاج السلع بوفرة فإن كثرة الإنتاج هى كل ما نحصل عليه، ومن ثم لن نحصل على الحرية والسلام . أما من ناحية أخرى، إذا كان هدفنا الحرية والسلام فمعنى ذلك وجوب توجيه جميع النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية وجهة مباشرة تؤدى إلى تحقيقها ، ولو أدى ذلك إلى إنتاج سلع أقل . وهكذا يتضح أن خطة غاندى فى التعليم تتميز بتوحيد الأغراض لتحقيق السلام والحرية ، اللذين يتوق إليهما كل الأجناس البشرية .

إن ناحية الاتجاه غير العملى للتعليم الذى أدخلته إنجلترا فى الهند ، وناحية الاتجاه نحو عدم العنف الذى هو أمل غاندى فى تحقيقه فى الهند ؛ تكونان تاريخ تطور مشروع التربية الأساسية كما سماها غاندى فيما بعد .

على أية حال ، حتى إذا استثنينا هذا التطور التاريخى ، فإن مشروع غاندى يعتبر حدثاً هاماً من الناحية النظرية التربوية التى على أساسها وضع هذا المشروع . وهذه النظرية كالآتى :

(ا) إن التربية الحقيقية للفرد التى تستهدف تنمية ملكاته من جميع نواحيها يمكن تحقيقها فى أحسن صورة لها أثناء العمل. أما من الناحية البيولوجية فإذا كان التفكير ينمو فى الإنسان فقط كعامل مساعد أثناء العمل كما يقول عادة لنا علماء النفس — فى هذه الحالة يمكن القول بأن مشروع غاندى فى التعليم مبنى على حقيقة مسلم بها وهى أن المعرفة والفهم ينموان كلما اندمجا فى مواجهة مشكلات تنبعث أثناء العمل . إن المعرفة التى تفرض على العقل منفصلة عن نشاط الفرد أغلب ما تكون حملا ثقيلا على الذاكرة ، وكثيراً ما ينجم من ذلك تخمة ذهنية تضر بذهن الفرد إن لم تسعفه الطبيعة بنسيان هذا الحمل الثقيل .

(ب) فضلا عن أن هذه التربية إذا ما دفعت القوى الكامنة فى الطفل إلى الخارج وجب أن تكون خلال تعليمها حرفة ما — لأن هذه الحرفة هى التى يمكن أن يتناولها الطفل ، وتضعه أمام مشكلات وتدعوه إلى أن يندمج فيها بفكره وقلبه وحسه الفنى .

وفى التعليم النظرى ، من جهة أخرى ، نجد أن التدريب الذى يدرب الطفل عليه أغلب ما يكون منفصلا عنه . وفى هذه الحالة يكون العقل منفصلا عن العمل اليدوى، واليد والعينان — فى العمل — لا تتجاوب مع العقل وحيث أن الطفل وحدة عضوية متكاملة فإنه من الواضح أن يكون التدريب الذى يعتمد فقط على تنمية جميع الملكات فى اتجاه متناسق هو التدريب الذى يمكنه تنمية الشخصية المتزنة إلى أقصى حدود الانسجام والاتزان . فى هذا العصر الذى

يدعو إلى التخصص والتقسيم بصورة كبيرة ، فإن دعوة غاندى إلى التكامل فى تربية الطفل تلائم وقتنا هذا وتعود بالفائدة المرجوة .

من سوء الطالع ألا يجد غاندى الوقت الكافى لتنمية آرائه بأى صورة مرتبة أو منظمة ولم يؤمن بوضع نظريات تعليمية لها بريق لامع . وأى تنمية كان يصل إليها يضعها فى قالب عملى ويعتبرها الاختبار الكافى لصلاحية آرائه فى التعليم .

وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نرتب كتابات غاندى ومحاضراته تحت عناوين معينة متوخين راحة القارئ هادفين أيضاً إلى ترتيبها حسب التسلسل التاريخى لها . والفصل الخامس بعنوان « نقد وتوضيح » له أهمية وضرورة خاصة حيث أن فيه شرحاً لنظريته أثناء مواجهة الشكوك والصعاب .

الفصل الأول

التّربية الجديدة

١ ــ الحاجة إلى تربية جديدة [١] :

المحرر : إن المعنى العام للتّربية هو معرفة الحروف الهجائية . وما يطلق عليه بالتعليم الابتدائى ما هو إلا تعليم الأولاد القراءة والكتابة والحساب . إن الفلاح يكسب لقمة العيش عن طريق الأمانه، وجل ما يعرفه هو معلومات عادية عن الحياة . بجانب ذلك فإنه يعلم جيداً السلوك الواجب اتباعه تجاه والديه ، وامرأته وأولاده ، وأقرانه من القرويين . وهو أيضاً يفهم ويدرك قواعد الفضيلة والأخلاق . لكنه بجانب كل هذا لا يعرف كيف يكتب اسمه . لكن ماذا نقصد من إعطائه معلومات عن الحروف الهجائية ؟ هل ستضيف شيئاً إلى سعادته ؟ هل ما نسعى إليه من جراء ذلك أن نجعله متبرماً من كوخة وأرضه ؟ وحتّى إذا أردت أن تقدم إليه كل هذا ، فإنه ليس فى حاجة إلى هذا النوع من التّربية . لقد جرفنا طوفان الفكر الغربى حتّى وصلنا إلى الحضيض ، دون أن نتدبر الأمر ونزن الأمور بميزان دقيق؛ وما كان منا إلا أن فرضنا هذا النوع من التعليم على الشعب .

والآن دعنا نتناول بالدراسة التعليم العالى . لقد تعلمت الجغرافيا ، والفلك ، والجبر والهندسة وغيرها ــ لكن ماذا كان يقصد من تدريس كل هذه المواد ؟ وعن أى طريق أفدت نفسى أو أفدت الذين أعيش بينهم ؟ لماذا إذن تعلمت كل هذا ؟ . عرّف الأستاذ هكسلى التعليم كالآتى :

« يخيل إلىّ أن الفرد الذى مارس التّربية العقلية هو ذلك الفرد الذى تدرب من

(١) محاورة بين غاندى وأحد القراء (المترجم) .

صغره على أن جسمه طوع إرادته ، ويعمل بسهولة وسعادة كل الأعمال الآلية التي في قدرته؛ وهو الذي أصبح ذهنه كآلة صافية، مطمئنة، ومنطقية — كل جزء منه له قوة متساوية يعمل بنظام سلس . . . وهو هذا الفرد الذى زود عقله بالمعرفة الخاصة التي تكشف عن حقائق الطبيعة . . . وهو الذى تدربت عواطفه لتأخذ مكانها فى الحياة خاضعة لإرادته القوية ، ولتكون أيضاً خادمة لوعيه اليقظ . . وهو الذى تعلم كيف يبغض كل أنواع الحسه والدناءة وكيف يحترم الغير كما يحترم نفسه . مثل هذا الفرد وليس أحد غيره ، كما أتخيل ، قد زود بتربية عقلية جعلته أكثر قدرة على أن ينسجم مع الطبيعة ، ويعمل على أن يقتدى بها ويستفيد منها . كما أنها سوف تقوده وتستفيد منه » .

إذا كانت هذه هى التربية الصالحة ، فينبغى أن نؤكد بكل قوة أن العلوم التى ذكرت أعلاه لم يكن فى مقدورى إطلاقاً استخدامها للتحكم فى مشاعرى — ومن ثم فسواء حصلت على التعليم الإبتدائى أو العالى فإن كلا التعليمين لم يؤديا إلى الهدف الأساسى ، أى أنهما لم يجعلا منى رجلا متكاملا . وهكذا فإن هذا النوع من التعليم لن يعدنا لتأدية الواجب الملقى على عواتقنا .

القارئ : إذا كانت هذه هى الحقيقة فدعنى ألقى عليك سؤالا آخر . كيف أمكنك أن تقول لى كل هذه الأشياء ؟ وكيف يمكنك أن تشرح لى كل هذه الأشياء التى عبرت عنها دون أن تكون قد حصلت على التعليم العالى ؟

المحرر : ولو أنك تحدثت جيداً ، إلا أن إجابتى ستكون مقتضبة : إنى لا أعتقد للحظة واحدة أن حياتى قد تصبح هباء إن لم أحصل عل التعليم الابتدائى أو العالى . ولا أعتبر نفسى أنى أقوم بخدمة ما لمجرد أن أتحدث . بل لأنى أرغب رغبة أكيدة فى القيام بخدمة ما ، وتوخيا لتحقيق هذة الرغبة فإنى أستغل التعليم الذى زودت به من قبل فى هذا الموقف . وحتى إذا فرضت أنى استغللته استغلالاً لا مزيد عليه، فإن هذا لن يعود بالنفع على الملايين من البشر؛ لكنى أستغله فقط عندما أتحدث مع شخص مثلك ، وهذا يؤيد وجهة نظرى

التى بدأت بها . كلانا أصيب بهذه الآفة التى يطلق عليها التعليم العاطل . وأعتقد أنى قد أصبحت متحرراً من كل التأثيرات البيئية لهذا النوع من التعليم ، وكل ما أحاول عمله الآن هو أن أزودك بخلاصة تجاربى ، ولذا فإنى أعرض عليك مساوئ هذا التعليم .

فضلا عن ذلك ، فإنى لم أقلل من شأن فائدة معرفة الحروف الهجائية تحت أى ظروف كانت . وكل ما عرضته عليك الآن هو أنه ينبغى علينا ألا نعتبر هذه الحروف الهجائية معبوداً وجب عبادته . إنها ليست معبودنا كامادهوك Kamadhok . ولو أخذ التعليم مكانه الطبيعى فى الحياة لكان فيه بعض الفائدة . ولن يأخذ مكانه هذا ، إلا إذا أخضعنا حواسنا وأرسينا أخلاقنا على قواعد ثابته . وفى هذه الحالة ، إذا شعرنا بميل نحو التزود بالتعليم ، فإنه يمكننا أن نستخدمه فى حياتنا بصورة مفيدة . أما أن نعتبر التعليم كحلية نتزين بها فهذا مالا يلائمنا . ومن ثم فإنه ليس من الضرورى أن نجعل التعليم إجبارياً — ويكفى النظام المدرسى القديم . إن رسالة التعليم الإبتدائى هى فى المقام الأول بناء صفات للفرد ، والفرد الذى يبنى على هذا الأساس كثيراً ما يعمر ويخلد .

القارئ : هل أفهم من ذلك أنك لا تعتبر اللغة الإنجليزية ضرورية لتفهم القوانين الخاصة بمجتمعنا ؟

المحرر : إن إجابتى على ذلك هى نعم . إن تعليم اللغة الإنجليزية للملايين من البشر فى الهند معناه أنك تستعبدهم فالأساس الذى وضعه ماكولاى Macaulay للتعليم قد استعبدنا جميعاً . إنى لا أدعى بأن المقصود منه كان استعبادنا ، لكن على أى حال فإنه أدى إلى هذه النتيجة . أليس هذا تفسيراً مؤسفاً حقاً عندما نقيم الدلائل والبراهين التى تثبت ضرورة التحدث عن القوانين الاجتماعية الخاصة بنا باللغة الإنجليزية ؟

ويحسن بنا ذكر الحقيقة وهى أن النظم التى نبذها الأوروبيون من قبل هى نفس النظم السائدة بيننا . فإن المتعلمين منهم يعملون دائماً على إيجاد تغيرات

مستمرة ، فى الوقت الذى نتمسك فيه بسذاجة وغباء بالنظم التى يقلعون عنها ، فى حين أن كل دولة من دول أوربا تحاول النهوض بمستوى الحياة فيها . إن مقاطعة ويلز عبارة عن جزء صغير من إنجلترا ، لكن هناك مجهودات كبيرة تبذل فى إحياء المعرفة الخاصة بهذه المقاطعة بين أهلها. هكذا نجد لوليد جورج ، حامل أختام الملكة فى إنجلترا ، يقود الدعوة الخاصة بتعليم الأطفال فى مقاطعة ويلز اللغة الخاصة بها ، وهى لغة تختلف عن الإنجليزية . . . ما هى حالتنا اليوم ؟ إننا نتراسل فى الهند باللغة الإنجليزية ؛ وقد تخطئ فى الكتابة بها ، ولكن لا تزال درجاتنا العلمية غير متحررة من قيود هذه اللغة — إن أبدع أفكارنا معبر عنها باللغة الإنجليزية ، حتى كلمات الافتتاح فى جلسات البرلمان تلقى بهذه اللغة ، إن أجود جرائدنا تطبع فى إنجلترا . فإذا استمرت هذه الحالة مدة طويلة ، فإن ذريتنا — وإنى موقن من ذلك تمام اليقين — سوف تديننا وتلومنا .

إننا لا نجنى أية ثمرة من استعباد الشعب عن طريق تعليمه اللغة الإنجليزية . إن أذناب الإنجليز من الهنود الذين يتقنون اللغة الإنجليزية لا يتورعون فى أن يضلونا الطريق ويبذروا بذور العبودية فى أفراد الشعب . وإذا كنا الآن فى صدد عمل شىء من أجل الشعب فإننا ندفع الدين الذى علينا نحوهم .

أليس هذا شيئاً يحز حقيقة فى النفس ، فعندما أريد الذهاب إلى المحكمة فإن على أن أستعمل اللغة الإنجليزية ، وعندما أصبح محامياً فلن أتمكن من المرافعة باللغة القومية وأضطر إلى الاستعانة بأحد المترجمين ليترجم لغتى القومية إلى الإنجليزية ؟ أليس كل هذا عبثاً وباطلا ؟ أليس هذا علامة من علامات الاستعباد ؟ هل يحق لى أن أعاتب الإنجليز أم أعاتب نفسى من أجل هذا ؟ إننا نحن الهنود الذين يتكلمون الإنجليزية مسئولون عن استعباد الهند . إن مسئولية النكسة التى تنتاب هذه الدولة سوف تقع حتما علينا وليس على الإنجليز أنفسهم .

لقد تحدثت إليك من قبل وذكرت أن الإجابة على سؤالك الأخير هى

بنعم ولا فى نفس الوقت ، وقد وضحت ذلك لماذا هى نعم ، وسوف أشرح لك لماذا هى لا .

إن مرض الحضارة يحدق بنا من كل جانب ، وإننا جميعاً نحتاج إلى التعليم الإنجليزى بحجة أن هؤلاء الذين حصلوا على التعليم الإنجليزى يستغلونه أحسن استغلال كلما دعت الضرورة إلى ذلك . فى معاملاتنا مع الإنجليز ، واتصالاتنا بأفراد شعبنا ، وعند ما تكون اللغة الإنجليزية هى الوسيلة فى كل هذه المعاملات والاتصالات ، سوف تعجب عندما أحيطك علماً بأنه حتى الإنجليز أنفسهم يتمردون على حضارتهم — ولذا فإنى لا أقول لك ألا تتعلم الإنجليزية، بل تعلمها ويحق لك استعمالها كلما كانت هناك حاجة إليها . إن الذين تعلموا الإنجليزية ينبغى عليهم أن يعلّموا الأخلاق أيضاً لذريتهم عن طريق اللغة القومية وتعليمهم لغة هندية أخرى ؛ وعندما تكبر هذه الذرية فمن المحتمل أن تتعلم الإنجليزية ، ولكن ينبغى أن يكون هدفنا الأسمى هو ألا نحتاج إليها . أما الغرض من الكسب المادى من وراء تعلم الإنجليزية فإنه يجب علينا أن نكف عنه . حتى إذا تعلمنا الإنجليزية بقدر محدود فإنه ينبغى علينا أن نعرف ما الذى ينفعنا وما الذى يضرنا منها . وهذا يعنى أن علينا مسئولية ضرورة التعرف على العلوم والمعارف الواجب الإلمام بها . وعلى أى حال فإن أقل تفكير فى وجوب التخلى عن العناية الزائدة بدراسة اللغة الإنجليزية ، سوف تعجب إذا علمت أن أتباع حكامنا ستفزع له .

القارئ : إذن ، أى تعليم هذا الذى ينبغى أن نزود به ؟

المحرر : هذا ما أردنا أن نحدده من قبل ، ولكنى سوف أزيدك إيضاحاً وتفسيراً . وأغلب الظن أنه من الواجب علينا تنمية جميع لغاتنا الهندية . ولن نحتاج إلى المزيد من التوضيح عن أى المواد المدرسية ينبغى أن نتعلمها عن طريق لغاتنا القومية . أما الكتب الإنجليزية التى نرى أنها ذات قيمة لنا فينبغى علينا ترجمتها إلى مختلف اللغات الهندية ، وهذا مع القضاء على محاولة إدخال علوم

كثيرة فى مدارسنا . أما التربية الدينية التى هى تربية أخلاقية ، سوف تحتل المكان الأول . كل هندى مثقف سوف يعرف لغة المناطق التى يعيش فيها ، فإذا كان هندوسياً فإنه يتعلم الهندوكية ، مسلماً تكون العربية ، فارسياً تكون الفارسية – علاوة على ذلك فإن المثقفين جميعاً سوف يتعلمون الهندية وكذلك بعض الهندوس ينبغي عليهم معرفةالعربية والفارسية؛ وبعض المسلمين والفرس معرفة اللغة السنسكريتية[1]. أما هؤلاء الذين يعيشون فى الشمال والجنوب فإنه ينبغى عليهم معرفة التاميلية . واللغة العامة للهند يجب أن تكون الهندية ، مع حرية الاختيار فى كتابتها إما بالحروف الفارسية أو النجارية . ومن أجل توثيق الصلات بين المسلمين والهندوس فإنه ينبغى معرفة اللغتين العربية والهندوكية . فإذا حققنا ذلك ، فإن اللغة الإنجليزية سوف لا تجد لها مجالا بيننا بعد وقت قصير . كل هذه الاتجاهات هامة بالنسبة إلينا – نحن المستعبدين . وما دمنا مستعبدين فإن الهند مستعبدة ، وسوف تتحرر إذا تحررنا .

القارئ : إن السؤال الخاص بالتربية الدينية سؤال يلوح صعباً إلى أقصى حدود الصعوبة .

المحرر : رغماً من ذلك فإننا لا يمكننا العيش بدون التربية الدينية . لن تكون الهند دولة لادينية . إن الإلحاد لن يجد له مرتعاً يعيش فى أرضنا . من هنا نشأت الصعوبة الحقة . إن رأسى تدور كلما فكرت فى التربية الدينية . ومعلمو الدين عندنا ما هم إلا شرزمة من المنافقين والأنانيين الذين ينبغى علينا أن نقومهم . إن المولاسيين ، والداسترين والبرهميين يحملون المفاتيح فى أيديهم ، وإن لم يكن لديهم الإحساس الطيب ، فإن القوة التى استمدت من التربية الإنجليزية سوف تضطر إلى توجيهها نحو التربية الدينية . . . ليس من الصعب تحقيق ذلك . إن حافة المحيط فقط هى التى دنست ، والذين يعيشون على هذه الحافة يحتاجون إلى أن يطهروا أنفسهم ، أما أولئك الذين أقحموا أنفسهم فى

(١) اللغة السنسكريتية هى اللغة الهندية الفصحى – (المترجم) .

هذا المجال فيمكنهم أن يطهروا أيضاً أنفسهم ، لأن تعليق هذا لا يطبق على الملايين . ولأجل أن نستعيد المجد الأول للهند ، علينا أن نرجع ثانية إليها وننضوى تحت لوائها .

٢ – التربية عن طريق المهنة :

أسهب غاندى فى توضيح الأسس التى قام عليها مشروع التربية الجديدة كما تخيلها ، وفى شرح العلاقة بين المهنة والتربية حسب وجهة النظر التى تبناها أثناء إلقائه مجموعة من الأحاديث ، فقد قال :

« إنى وطدت العزم منذ مدة طويلة على إدخال اتجاه جديد فى التعليم . خاصة بعد أن كشفت عن مدى فشل التعليم الحديث فى عدد كبير من الطلاب الذين وفدوا لرؤيتى بعد حضورى من جنوب أفريقيا . ولذا بدأت العمل بالتدريب على الصناعات الريفية فى مدرسة أشرام . وفى الحقيقة ، كان هناك اهتمام أكثر من أى مدرسة أخرى على التدريب اليدوى ، وقد نقد البعض هذا الاهتمام الكبير بحجة أن الأطفال كثيراً ما يحسون بالملل من التدريب اليدوى ويفكرون أيضاً بأنهم حرموا من التعليم النظرى – لا شك فى أن هؤلاء الذين تسرعوا فى نقدهم لم يجانبهم الصواب لأن القليل مما تزود به التلاميذ فى هذه المدرسة كان أكثر مما تعلمه الأطفال فى المدارس التقليدية الأخرى . على أية حال ، فإن هذا النقد جعلنى أفكر فى الأمر ملياً ، وأوصلنى إلى نتيجة هامة ، هى أن التعليم النظرى ينبغى ألا يدرس بجانب التدريب اليدوى ، بل يجب أن يزود التلميذ بالتعليم النظرى عن طريق التدريب المهنى . ومهما كان الأمر فإن التدريب المهنى لن يدعو الطفل إلى الكد والعناء ، وإن التدريب النظرى لن تشمل مناهجه إلا كل جديد مفيد »

« ولن نسمح بتدريس اللغة الإنجليزية لأننا نعلم أن كثيراً من وقت الأطفال يضيع عبثاً فى حفظ الكلمات والجمل الإنجليزية ، وحتى إذا سمح لهم بحفظ

وترديد هذه الجمل والكلمات الإنجليزية ، فإننا نجدهم غير قادرين على أن يترجموها إلى لغتهم القومية وغير قادرين أيضاً على المتابعة المفيدة لما يتعلمونه من أساتذتهم . هذا من جهة ، أما من جهة أخرى فإنهم بدراسة اللغة الإنجليزية ينسون لغتهم القومية وكثيراً ما يعرضون عنها . وعلى كل، فإن تعليم الأطفال عن طريق التدريب المهنى يعتبر الوسيلة الوحيدة لتلافى هذين الشرطين . »

« ينبغى من أول يوم من أيام الدراسة أن أبدأ بالكشف عن قدرات الأطفال حتى أعرف درجة معرفتهم القراءة والكتابة أو الجغرافيا ، ثم بعد ذلك أحاول أن أزيد من معلوماتهم واستعداداتهم عن طريق تدريبهم على النول اليدوى » .

« وقد يسأل سائل منكم عن السبب الذى من أجله اخترت التدريب على النول دون التدريب على الصناعات الريفية الأخرى الموجودة فى متناول أيدينا . إن النول اليدوى هو من أولى الصناعات التى وجدنا أنها عاشت على مر القرون . فى القرون الأولى صنعت ملابسنا بأنوال الغزل اليدوية . ونعلم أن آلة الغزل أدخلت بعد ذلك ، ونعلم أيضاً أن أجود أنواع الغزل لا يمكن أن تصنعه آلة الغزل . ولذا فإنه ينبغى علينا أن نرجع ثانية إلى استعمال النول اليدوى . فإن ابتكار النول اليدوى ، إن دل على شىء إنما يدل على مدى العبقرية الفذة التى دفعت الإنسان إلى صنعه . فالمهارة فى استعمال الأصابع على النول تعد من الأشياء الحيوية فى إنتاج الغزل . وكان من نتيجة قصر استعمال النول اليدوى على هؤلاء العمال الذين لم يصيبوا أى نوع من التعليم أن انقرض استعماله على مر الزمن. أما إذا شئنا حقاً أن نحيي استخدام النول اليدوى حتى نصل به إلى المكان اللائق به ، وأردنا أيضاً أن ننهض بالحياة فى الريف ، كان لزاماً علينا أن نعلم أطفالنا كيف يعملون على النول اليدوى . أما الدرس الثانى الذى ألقنه للأطفال فإنه ينصب على شرح وتوضيح للمكان الذى ينبغى أن يحتله النول اليدوى فى حياتنا اليومية . ويلى هذا الدرس دروس فى التاريخ أعلمهم فيها الأسباب التى أدت إلى تدهور النول اليدوى . ثم يعقب هذه الدروس التاريخية مجموعة من الأحاديث المختصرة عن تاريخ الهند ، مبتدئاً بشركة الهند الشرقية ، أو حتى

قبل ذلك فى الفترة التى قضاها المسلمون فى الهند — مع العرض عليهم للحساب الدقيق لمدى استغلال رؤوس أموال شركة الهند الشرقية ، وكيف أدى هذا الاستغلال إلى تدهور صناعاتنا الأساسية وإلى القضاء عليها نهائياً . بعد هذه الأحاديث ، أبدأ معهم فى عرض سلسلة من الدروس الخاصة بالميكانيكا وخاصة ما يرتبط منها بتركيب النول اليدوى . فى هذه الدروس سوف يبرز النول اليدوى عندما كان منذ قرون مكوناً من كرة صغيرة مصنوعة من الطين جففت على عامود من الغاب يدور خلال مركز الكرة . إن هذا النوع من الأنوال اليدوية لا يزال مستعملا فى مناطق من بهار والبنجال — وسوف أوضح أيضاً للأطفال كيف حل القرص المصنوع من الطوب مكان الكرة الطينية ، ثم تطور فى وقتنا هذا إلى قرص مصنوع من الحديد أو الصلب أو النحاس بدلا من القرص المصنوع من الطوب ، واستخدام السلك المصنوع من الصلب بدلا من العمود الخشبى من الغاب . وفى هذه النقطة بالذات يمكن أن نسهب فى التحدث مع الأطفال عن حجم هذا القرص ، وأيضا طول السلك المستعمل ، ولماذا حدد لهما مقاس معين ، ولماذا لم يحدد لهما مقاس أقل أو أطول من ذلك . ثم يلى ذلك مجموعة من الدروس عن القطن ، موطنه — أنواعه — المناطق والولايات الهندية التى تزرعه . وتلى أيضاً بعض الدروس التى تستهدف تزويدهم بالمعلومات عن وسائل زراعة القطن أو نسب الأراضى التى تصلح لزراعته ... إلخ . وهكذا نجد أنفسنا حريصين على تعريف الأطفال ببعض أساليب الزراعة » .

« ويتضح من كل هذا أن العملية فى حاجة إلى علم غزير ينبغى على المعلم أن يتمكن منه حتى ينقله إلى تلاميذه . ومثلا ، فإن كل مبادئ الحساب يمكن تعليمها أثناء عدّ ياردات الفتل ، وحساب الخيوط المعدة للغزل ، وعدّ المجموعات المستعملة ، وأثناء تجهيز الثلات إلى النساج ، وعد الخيوط المتقابلة فى سدى النول التى توضع بشكل معين تبعاً لنوع النسيج المراد إنتاجه وما إلى ذلك . فإن كل هذه العمليات من زراعة القطن إلى تصنيعه — من جمع

للقطن ، وحلج وتمشيط وغزل ونسيج — هذه العمليات يمكن أن تكون مجالا طيباً لتدريس الميكانيكا والتاريخ والحساب . »

« إن الهدف الأول من التدريب على الصناعات الريفية هو السمو الكلى بالجسم والروح والعقل . أما ما ينبغى على الفرد منكم أن يعمله هو أن يبعث فى الطفل القدرة على الابتكار أثناء تعلم كل عمليات الصناعة الريفية ، ويجب أيضاً أن ترتبط بهذه الصناعة الريفية ، المعلومات التى تتصل بالجغرافيا والتاريخ والحساب .

٣ — التنمية الذهنية أو التشتيت العقلى :

أثناء الجولة التى قمت بها فى ترافانكور ومدراس وجدت أن معظم الطلاب « المثقفين » الذين اتصلوا بى يعتبرون مثلا واضحاً من أمثلة التشتيت الذهنى . مما لا شك فيه أن اللوم فى ذلك يقع على النظام الحديث فى التربية، هذا النظام الذى شجع ميولهم الفاسدة، وأساء توجيه عقولهم ؛ وهكذا كان من نتيجته أن وقف نموهم الذهنى ووجهوا وجهة غير حميدة . إن تجربتى فى سنجاون عملت على تثبيت هذا الانطباع فى نفسى . وعلى أية حال ، فإن هذه الإنطباعات غير كاملة حتى يمكن أن نحكم عليها حكماً علمياً قاطعاً . فالآراء التربوية التى سوف أعرضها الآن قد راودتنى منذ أن استقر بى المقام فى فاونكسى بجنوب أفريقيا عام ١٩٠٤ .

إنى أعتقد بأن التعليم الصالح للمثقفين يمكن أن نحققه فقط عن طريق الممارسة الصالحة وتدريب أعضاء الجسم ، مثل ، اليدين ، والرجلين ، والعينين ، والأذنين والأنف وغيرها . أى بمعنى آخر أنه إذا وجهنا الطفل إلى أن يستعمل أعضاء جسمه استعمالا حسناً فإن هذا يعد من أنجع الوسائل وأسرع الطرق فى تنمية الذهن . أما إذا لم يأخذ العقل والجسم طريقاً واحداً مع تجاوبهما فى إيقاظ الروح ، فإن محاولة تنمية العقل وحده دون الجسم والروح سوف تثبت الأيام

عدم جدواها بل وقد تثبت أن هذا العقل سوف ينحرف مع الأيام . وما أعنيه بالتدريب الروحى هو تربية القلب . فإن تنمية العقل بصورة متكاملة من جميع نواحيها لا يمكن أن تتحقق إلا إذا صاحب هذا النمو نمو فى تربية الملكات المادية والروحية فى الطفل . إن هذا النمو ينبغى أن يتخذ شكلا كلياً غير قابل للتجزئه. ومن ثم فإنه من الخطأ أن نفترض بأن هذه الملكات تنمو نمواً منفصلا أو مستقلا . وكم هو واضح لنا مدى الضرر الذى يلحق الفرد عندما تفقد الملكات المختلفة للعقل والجسم والروح تناسقها وانسجامها . إن هذه الملكات تعيش فى كياننا ، وكل ما فى الأمر أننا فقدنا مدركاتنا لها . وقد يرجع ذلك إلى فساد علاقتنا واعوجاج سبل حياتنا . لنأخذ مثلا بالفلاحين فى قرانا ، فمنذ الطفولة وهم يكدون ويعملون فى أراضيهم من الصباح المبكر إلى الليل ، تماماً كالحيوانات التى يستعملونها والتى ينامون معها . إن حياتهم شقاء لا نهاية له من أثر الكد والعناء الآلى دون أن يكون هناك متنفس لأذهانهم أو استمتاع بالنعمة الكبرى للحياة . وما داموا قد حرموا من جميع المجالات التى تنمى عقولهم وأرواحهم فإنهم انحدروا إلى مستو وضيع . أما الحياة بالنسبة لهم لا تخرج عن كونها مؤلمة، وكتب عليهم أن يؤدوها ويحيوها راضخين. إن ما يطلق الآن عليها تربية فى مدارسنا وجامعاتنا بالمدن ، هى فى الحقيقة نوع من التعليم يؤدى إلى تشتيت الذهن . إن التدريب الذهنى يُنظر إليه نظرة كلها منفصلة عن العمل اليدوى أو المادى . وما دام الجسم يحتاج إلى بعض التدريبات العقلية ليحفظ صحته وكيانه،فإن هذه المنظمات التعليمية تحاول دون جدوى تحقيق هذا الهدف عن طريق نظام اصطناعى عقيم للثقافة البدنية . إن هذا النظام يتلخص فى تلقين التلاميذ بعض الكلمات الهزيلة التى قد تؤدى بهم إلى نهايات غير سارة . فالشباب الذى تربى فى ظل هذا النظام لا يمكنه ، بأى حال من الأحوال ، أن ينافس عاملا عادياً فى قوة الاحتمال العضلية . فأى مجهود عضلى بسيط يجعله مصاباً بالصداع ، وأى تعرض خفيف للشمس قد يكون كافياً

لإصابته بالدوار. وما يؤلم فى موضوعنا هذا أن الشاب ينظر إلى كل هذه الأشياء كظاهرة « طبيعية » . وفى السياسة التعليمية الحالية فى الهند نرى النظام التربوى يسمح لملكات القلب أن تنمو بطريقة تتميز بالوحشية دون أن تبنى على أساس من التعاليم والمبادئ الأخلاقية . ونتج عن كل ذلك فوضى أخلاقية وروحية تقضى على الشباب. وكم يحز فى النفس أن يعتبر الشباب هذه الفوضى سلوكاً محموداً!

وعلى العكس من ذلك ، لنأخذ مثلا حالة طفل أدخلت تربية القلب فى حياته منذ المرحلة الأولى من تعليمه . ولنفرض أنه تدرب على بعض المهن النافعة كالغزل والنجارة والزراعة أو غيرها ، ثم ارتبط تعليمه بإدراك كامل لنواحى المعرفة المتصلة بنواحى العمليات المختلفة التى لها صلة بمهنته ، ولها صلة أيضاً بوسائل استعمال وعمل الأدوات التى يحتاج إلى استخدامها — فى هذه الحالة لن ينمو طفلنا هذا قوياً نشطا فحسب ، بل سيكون ذهناً متقداً غير أكاديمى فى جوهره له جذور عميقة فى حياته تكبر يوماً بعد يوم . وزد على ذلك فإن التربية الذهنية سوف تشمل معرفة للحساب والعلوم المختلفة التى تعد مفيدة للطفل أثناء ممارسته لمهنته . وإذا أضيف إلى هذه المعرفة دراسة فى الآداب والأخلاق عن طريق الترفية ، فإن مثل هذه المعارف والدراسات تجعل منه طفلا متزناً من جميع نواحيه — فعندما يدرب الذهن والجسم والروح تدريباً كلياً وتنمو نمواً متناسقاً منسجماً فإن الإنسان سوف يربى فى الاتجاه السليم . ومما لا شك فيه أن الإنسان لا يعتمد كلية على الذهن أو على الشهوة الحيوانية أو على القلب والروح وحدهما . فإن التآلف المبنى على أساس الانسجام والاتزان بين هذه النواحى الثلاث ينبغى أن ينظر إليها ككل ؛ وهذا النمو الكلى يؤدى إلى التربية الاقتصادية . إن مثل الذين ينادون بأن هذا النوع من التربية لا يمكن تنفيذه إلا بعد أن نحقق استقلالنا ، كمثل الذين يضعون العربة أمام الحصان ويترقبون تحركها . إن الاستقلال سوف يحقق سريعاً ، هذا إذا جعلنا الملايين من الهنود يمارسون مهناً مختلفة يتخصصون فيها ، وأن نوجههم وجهة طيبة نحو العمل والعيش من أجل إسعاد الجميع .

٤ — أسس التعليم العام :

إن رئيس المؤتمر المحلى للمعلمين الذين يدرّسون فى مدارس التعليم العام «بجوجاراتا» الذى عقد فى تيثال فى ٢٢ مايو ١٩٣٧ أرسل إلى الذين دعوا لهذا المؤتمر استفتاء شمل الآتى :

١ — ما هو نوع التعليم الذى يتلاءم كل الملاءمة مع حاجات القرى الهندية ، والذى يكون أكثر نفعاً وفائدة لهم ؟ ثم كيف يمكن لنا أن ننشر هذا النوع من التعليم فى كل قرية ؟

٢ — كيف نمحو الأمية ونكافح جهل الجماهير ؟

٣ — هل التثقيف عملية لازمة للنمو الذهنى ؟ وهل نظام البدء بتعليم الطفل الحروف الهجائية والقراءة والكتابة معوق للنمو الذهنى ؟

٤ — إن الحاجة إلى التدريب المهنى هى المحور الذى تدور حوله جميع المواد الدراسية .

٥ — مستقبل مدارس التعليم العام فى الوقت الحاضر .

٦ — احتمال جعل تعليم الأطفال فى المدارس الهندية عن طريق اللغة القومية .

٧ — ما هى الأسس التى ينبغى أن تتوفر فى التعليم العام وغير مستوفاه فى المدارس الهندية ؟

٨ — الحاجة إلى جعل اللغة الهندية — الهندوستانية — إلزامية فى السنوات الأولى من التعليم الابتدائى والثانوى .

وحيث أن غاندى كان مدعواً ليعبر عن وجهة نظره نحو هذه الموضوعات التى شملها الاستفتاء فإنه لم يتوان عن إبداء رأيه . والآتى ملخص لهذا الرأى :

« إذا أردنا أن نعد تعليمات أكثر ملاءمة لحاجات القرويين ، فإنه يجب

علينا أن نحول إحدى المدارس الموجودة فى القرية إلى مركز تدريب يمكنه أن يقوم بالتدريب العملى للمعلمين فى ضوء حاجات القرية والقرويين . وما من شك فى أنك لن يمكنك تلقين المعلمين معلومات عن حاجات القرويين فى الوقت الذى ندربهم فى المدينة . وأكثر من ذلك فإنك لن يمكنك أن تثير اهتمامهم فى أوضاع ومشكلات القرى . هذا لن يكون بالعمل السهل وخاصة عندما ترغب فى إثارة اهتمام المعلمين الذين يعيشون فى المدينة بالحياة فى القرى . إن الشواهد الكثيرة التى ألاحظها يومياً فى سيجاون تؤكد هذا القول . وقد يكون من الصعب أن أؤكد بأن مكوثنا فى سيجاون جعل منا قرويين ، أو حتى أفراداً يعملون مع الأهلين للصالح العام » .

« أما من حيث التعليم الابتدائى ، فإنى مؤمن تماماً بأنه إذا بدأ بالتدريب على الحروف الهجائية والقراءة والكتابة فقد يؤدى ذلك إلى عرقلة النمو الذهنى للتلاميذ . معنى ذلك أنه ينبغى ألا ألقنهم الحروف الهجائية قبل أن يتزودوا بالمعرفة الابتدائية للتاريخ والجغرافيا ، والحساب العقلى ، ومبادئ الغزل . وعن طريق النواحى الثلاث هذه فسوف أنمى ذكاءهم . وقد يسأل سائل ، كيف يمكن تنمية الذهن عن طريق النول اليدوى أو دولاب الغزل ؟ نعم ، يمكن تحقيق ذلك إلى درجة كبيرة إذا لم يعلما بصورة كلها آلية — فعندما تتحدث مع الطفل عن أسباب كل عملية من عمليات الغزل ، وتشرح له ميكانيكية النول اليدوى أو دولاب الغزل ، وتلقنه تاريخ القطن وعلاقته بالحضارة نفسها ، ثم تزور معه إحدى مزارع القرية التى ينمو فيها القطن ، وتعلمه كيف يعد اللفات التى يغزلها ، وتعرفه الوسائل التى عن طريقها يدرك استواء وقوة الخيوط ، فعندما تقوم بكل هذه العمليات مع الطفل فإنك تجعله أكثر اهتماماً وفى نفس الوقت تدرب يديه وعينيه وعقله . إن الفترة التى أحددها لهذا التدريب الأولى تقدر بستة أشهر . ومن المحتمل بعد هذه الفترة أن يصبح الطفل أكثر استعداداً لتعلم قراءة الحروف الهجائية . وعندما يكون قادراً على القراءة بسرعة ، فإنه

يصبح قادراً على دراسة فن الرسم . وبعد أن يعرف كيف يرسم أشكالا هندسية وأشكال الطيور وغيرها ، فإنه سوف يتعلم رسم الحروف الهجائية — إنى أتخيل أيام طفولتى عندما كنت ألقن الحروف الهجائية ، وأدرك إلى أى حد كان هذا التلقين عملا شاقًا معوقاً ، ولذلك كان الكثير من الصدأ قد علا ذهنى الصغير . إنى أعتبر الكتابة فناً جميلا ، ونحن نقضى على هذا الفن بغرض كتابة الحروف الهجائية على الأطفال ونجعلها بداية التعليم ، ومن ثم نعوق ازدهار فن الكتابة ونوقف نموه عند الطفل حينما نعلمه الحروف الهجائية قبل موعدها » .

« أما حقيقة رأيى فهو أنه ينبغى علينا أن نحس بالأسى والخجل إزاء الجهل أكثر مما نحس بهما إزاء وجود الأمية . ولذا فى تعليم الكبار يجب على أن أضع برنامجاً شاملا لمحو الجهل عن طريق معلمين قد اختيروا بدقة وإمعان ، مع مراعاة الدقة أيضاً فى اختيار المناهج التى سيقومون بتنفيذها متوخين تعليم عقول الكبار من القرويين . لا أعنى من ذلك أنى لن أعلمهم مبادئ المعرفة الهجائية ، التى أقدرها كل التقدير ولا أقلل من شأنها فى عجلة التعليم » .

« لذا ، فإنى مقدر للأعمال التى قام بها الأستاذ لوباخ فى جعل الحروف الهجائية سهلة للأميين والأستاذ بهاجوات على مساهمته العملية فى نفس الطريق الذى سلكه لوباخ . وقد دعوت الأستاذ بهاجوات للحضور إلى قرية سيجاون فى أى وقت يشاء ليحاول تطبيق فنه وعمله على الرجال والنساء ، وحتى على الأطفال »

« أما بخصوص ضرورة وأهمية جعل تعليم الصناعات الريفية فى القرية كمحور أو مركز للتربية فهذا ما لايخامرنى أى شك فى صحته . إن الوسائل التى تتبناها المعاهد التربوية فى الهند لا أطلق عليها البتة تعلماً ، فإنها توجه أحسن ما فى الإنسان ؛ ولكن من جهة أخرى تترك العقل فاسداً منحلا . إن هذا النوع من الوسائل التعليمية يحيط الإنسان فقط ببعض المعلومات العقلية ، فى حين أن تدريب العقل عن طريق الصناعات الريفية منذ الصغر كمحور

حقيقى له سوف يؤدى إلى التنمية الخلقية للعقل — ويكون من نتيجة ذلك السمو بالقوى الذهنية، وعن طريق غير مباشر الارتقاء بالقوى الروحية . وهنا أيضاً ينبغى ألا يخطئ البعض ويلصقوا بى تهمة الإقلال من قيمة الفنون الجميلة . لكنى لن أضع شيئاً فى المكان غير المناسب له، لأن الشيء الذى يوضع فى غير مكانه الطبيعى قد تتغير قيمته ووظيفته . ولأدلل على ما أقول ، فإنى أعطى مثلا، أطنان المعلومات والآداب غير الملائمة التى لقنت لنا دون أن يكون لها جدوى تذكر فى حياتنا » .

٥ — ماذا بشأن التثقيف ؟

لقد تسلمت الكثير من الآراء حول الأفكار التى أعبر عنها فى هذه المقالات التربوية . وفى هذه المقالة أود أن أجيب على المظلمة التى رفعها إلى أحد الصحفيين المعروفين وسجل فيها إهمال الثقافة. وقد تخيل هذا الصحفى إنى مسئول عن هذا الإهمال مع أنه ليس هناك أى شيء فيما كتبه يوحى بهذا الاعتقاد . ألم أبين بأن الأطفال فى المدارس ، حسب وجهة نظرى ، سوف يحصلون على كل المعلومات عن طريق الصناعات الريفية التى يتدربون عليها ، وأن هذه المعلومات تشمل أنواعاً من التثقيف ؟ . فى المنهج الذى وضعته نجد أن اليد يمكنها تناول الأدوات قبل رسم أو نقل الكتابة — فإن العين تقرأ صور الحروف والكلمات كما ترى الأشياء الأخرى فى الحياة ، والأذنين تلتقطان الأسماء ومعانى الأشياء والجمل . فتدريب اليدين والأذنين والعينين عملية طبيعية يمكن تحقيقها بسرعة ويسر ولذا فإن الأطفال فى مدرستى سوف يقرأون أسرع مما يكتبون ، وعندما يكتبون فلن تكون كتاباتهم غير متقنة كما هو الحال فى كتابتى (وشكراً لأساتذتى) ، بل سوف يكتبون حروفاً صحيحة كما لو أنهم يرسمون أشكالا صحيحة يرونها . فإذا كانت هذه المدارس تحقق ما أدعو إليه ، فيمكن القول بأنها سوف تنافس أكثر المدارس رقياً فى تعليم التلاميذ السرعة فى القراءة ، كما

أنها ستنافسها فى الكتابة أيضاً — على أن تكون كتابة تلاميذنا متقنةصحيحة لا كما تلقن الآن فى أغلب مدارسنا . وقد يقال إن الأطفال الذين يتعلمون فى مدرستنا بقرية سجاون يكتبون حسب المستوى التقليدى ، لكنهم على أى حال يتلقون ألواحاً وورقاً كثيراً تبعاً للمستوى الخاص الذى أريد لهم أن يصلوا إليه .

٦ — ماذا تتوقع من « ناى تعليم »[1].

إن من الضرورى علينا فهم النواحى الجديدة والأصيلة فى « ناى تعليم »[2]. حيثما نجد نواحى طيبة فى التعليم التقليدى فإننا دون شك سوف نبقى عليها فى « ناى تعليم » ، ولكن بجانب هذا ستكون هناك عناصر جديدة كافية . فإذا كانت «ناى تعليم» حقيقة جديدة كل الجدة فإنها سوف تقودنا إلى النتائج الآتية : إن إحساسنا بالخيبة والفشل ينبغى أن يحل مكانه الأمل والرجاء — والفقر والجوع تحل مكانهما وسائل كافية لتحقيق سعادتنا — البطالة تحل مكانها الصناعة والعمل — الخلاف والنزاع يحل محلهما الوفاق والوئام . ينبغى علينا أيضاً أن نمكن أولادنا وبناتنا من كيفية القراءة والكتابة ، وفى الوقت نفسه يتدربون على مهنة يحصلون عن طريقها على العلم والمعرفة .

---

(١) هذه الرسالة أرسلت إلى « ناى تعليم » لنشرها فى الجريدة الشهرية التى تصدرها « هندستانى تاليمى سانج » بواردها فى أول عدد صدر لها (المحرر)

(٢) يقصد (بناى تعليم) التعليم الجديد **Nai Talim** . (المترجم)

الفصل الثانى

مؤتمر التربية الأساسية

٧ — أسئلة طرحت أمام المؤتمر التعليمى :

إن مدرسة ماروادى الثانوية بولاية واردها تحتفل بعيدها الخمسين . وفى هذه المناسبة خطر لمدير المدرسة أن يعقد مؤتمراً صغيراً من المربين الأكفاء فى الهند ليتدارسوا فيما بينهم مشروع التعليم الذى حاولت أن أوضحه فى هذه المقالات . وقد استشارنى السيد أجاروال وسألنى ما إذا كنت أوافق على أن أقوم بعبء رئاسة المؤتمر . وقد أحببت كلتا الفكرتين : فكرة عقد المؤتمر ، وفكرة التحدث فيه . وسوف يعقد هذا المؤتمر فى واردها فى ٢٢ ، ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٧ . إن هؤلاء الذين سيحضرون إلى المؤتمر هم المدعوون فقط . إن الأماكن جهزت لعدد محدود من الذين يهتمون اهتماماً عميقاً بهذه المشكلة ، والذين يمكن أن يسهموا مساهمة نافعة فى المناقشة. والمؤتمر لن يهدف إطلاقاً إلى أن يكون مسرحاً للمشاهدة ، لذا فلن يكون هناك زوار بل سيكون اجتماعاً كله عمل ودراسة ، وإن عدداً محدوداً من التذاكر سوف توزع على الصحفيين . وإنى أنصح محررى الصحف أن ينتخبوا واحداً أو اثنين منهم ليتقاسموا التقارير فيما بينهم .

وقد قبلت العمل فى هذا المؤتمر بخشوع ورضاء وعزم أكيد للتعلم والإصلاح وتصحيح آرائى ، كلما كانت هناك ضرورة إلى ذلك .

والتوصيات التى سوف أعرضها فى المؤتمر لدراستها ، كما أتخيلها ، تنحصر فى الآتى :

١ — إن النظام الحالى للتعليم لا يتفق وما تصبو إليه الدولة بأى شكل من الأشكال . أما الإنجليزية باعتبارها اللغة التى يدرس بها فى كل فروع التعليم

العالى قد بنت سياجاً يفصل بين المثقفين وهم قلة وبين غير المثقفين وهم كثرة . هذا بجانب أن اللغة الإنجليزية قد وقفت حجر عثرة فى سبيل توصيل المعارف إلى الجماهير . إن الاهتمام المتزايد الذى يعطى للإنجليزية قد وضع عبثاً ثقيلا على التعليم ، وأعجز عقول الأطفال ليحيوا حياة طبيعية ؛ بل وجعلهم غرباء فى أرض وطنهم . أما غياب التدريب المهنى فى مناهج التعليم فقد جعل من المتعلمين فئة أغلب مايكون أفرادها غير صالحين للعمل المنتج ، وأيضاً أضر بصحتهم البدنية . والأموال التى تصرف على التعليم الابتدائى تعتبر مصروفات لا طائل من ورائها عندما تقارن بالتعليم القليل الذى يحصل عليه الأطفال ، والذى كثيراً ما ينسى لقلة فائدته وقيمته بالنسبة إلى القرى أو المدن . إن هذه المنفعة القليلة التى نكسبها عن طريق السياسة التعليمية الحالية لا تفيد الغالبية من دافعى الضرائب الذين يحصلون أطفالهم على القليل من التعليم .

٢ — ينبغى أن تزاد سنوات الدراسة فى التعليم الابتدائى إلى سبع سنوات على الأقل ، وينبغى أن تشمل المعرفة العامة التى يحصل عليها التلاميذ فى مستوى المرحلة الثانوية مع التقليل من اللغة الإنجليزية والإكثار من المهن الهامة .

٣ — ينبغى أن تكون معظم نواحى التدريب العملى عن طريق مهنة منتجة حتى يمكن تنمية الأولاد والبنات تنمية متكاملة من جميع نواحيها . أو بمعنى آخر ، فإن المهن يجب أن تخدم غرضين أساسيين ، الأول أن تمكن التلميذ ليسدد مصروفاته المدرسية عن طريق الإنتاج من عمله ، والثانى فى نفس الوقت تنمى الرجولة أو الأنوثة الكاملة فى التلميذ أو التلميذة خلال التدريب على المهن فى المدرسة . علماً بأننا لا نقصد أن يسهم التلميذ عن طريق عمله وإنتاجه بمصاريف الأرض والمبانى والأثاثات المدرسية . إن جميع عمليات القطن أو الصوف أو الحرير من الجمع إلى التنظيف بالحلج (فى حالة القطن) ، التصنيف ، الغزل ، الصباغة التوزيع ، التسدية ، الرسم والنسيج ، أشغال الإبرة ، التفصيل ، عمل اللعب — هذه العمليات التى تتطلبها المهن الخاصة بها يمكن بسهولة ويسر التدرب عليها

والكسب منها دون حاجة إلى رأس مال كبير .

وهكذا يجب على التعليم الابتدائى أن يهئ الأولاد والبنات ليحصلوا على قوتهم، وذلك بأن تضمن الدولة لهم العمل فى المهن التى يتعلمونها ، أو بشراء منتجاتهم بأسعار تحددها الدولة .

٤ ـــ إن التعليم العالى ينبغى أن يترك لمنظمات خاصة ، على أن يُتفق معها فى إطار الأهداف الوطنية على نوع الصناعات المختلفة ، ونوع الفنون المهنية ، ونوع الآداب الرفيعة[١] ، أو الفنون الجميلة التى تدرس فى هذه المعاهد العليا .

ويجب على الجامعات التى تديرها الولايات أن يكون اختيار الطلبة فيها دقيقاً ، وأن تعتمد على نفسها مادياً عن طريق المصروفات التى تتقاضاها من الطلبة المتقدمين إليها . إن الجامعات سوف ترعى جميع ميادين التعليم، من وضع واعتماد الدراسات فى الإدارات التعليمية المختلفة، وإنى أرى ألا تنشأ مدارس خاصة إلا بعد موافقة جامعة الولاية عليها . أما لائحة الجامعة فإنها توفر المكان للطالب الذى يثبت علمه وتكامله . وبجانب هذا ينبغى ألا تكلف كليات التربية الدولة شيئاً إلا فى تحمل النفقات الجارية للإدارة المركزية للتربية .

فالمشروعات التى تحدثنا عنها آنفاً لا تعفى الدولة أو الولاية من مسئوليات عقد حلقات بحث ودراسة كلما دعت الحاجة إليها . وقد نفترض بأنه إذا قبلت الدولة هذا المنهج فإنها سوف تعمل على حل المشكلة التى تواجهها دائما ـــ تدريب الشباب ، ومستقبل المدربين.

٨ ـــ السؤال الأول[٢]

قال غاندى ، بعد أن شكر الذين لبوا الدعوة لحضور المؤتمر ، أنه سواء

---

(١) يقصد غاندى بالآداب الرفيعة الفنون التى تستدعى أعمال المخيلة والعقل كالشعر ، والفلسفة والبلاغة ، والبيان وأشباهها . (المترجم) .

(٢) كلمة الافتتاح التى ألقاها غاندى فى مؤتمر التربية الذى عقد بواردها فى ٢٢ ، ٢٣ أكتوبر ١٩٣٧ – (المحرر) .

أكان رئيساً أو عضواً للمؤتمر فإنه دعاهم لغرض الاستماع إلى آرائهم ونصائحهم فى المقترحات[1] التى تقدم بها ، وخاصة للاستماع إلى هؤلاء الذين اعترضوا عليها . وقد اعتذر غاندى عن حضور هذا المؤتمر لأسباب صحية ، لكنه طلب من المؤتمرين أن تكون مناقشاتهم حرة صريحة .

والمقترحات ، كما حددها غاندى ، تتعلق بالتعليم الابتدائى والجامعى . لكنه ينبغى عليهم أن يركزوا أول ما يركزون على التعليم الابتدائى . وقد طوى غاندى التعليم الثانوى ضمن التعليم الابتدائى ، وذلك لأنه أثناء زياراته وتجواله فى القرى منذ سنة ١٩١٥ وجد أنه حتى التعليم الابتدائى لا يتمتع به إلا القليل من أطفال القرى . فعندما يتحدث غاندى عن التربية إنما يعنى كلية حاجات الأولاد والبنات القرويات ، وهم فى مجموعهم أميون . ولم يدع بأنه خبير بالتعليم الجامعى ، ولو أنه اتصل بمئات من طلاب الجامعات وتحدث معهم من القلب إلى القلب وكانت هناك مراسلات بينه وبينهم . ولذا فغاندى يعلم تماماً مدى حاجاتهم ، وفشلهم ، والأمراض التى يعانون منها . وبناء على ذلك طلب من المؤتمرين أن يتقيدوا أولا بمشكلات التعليم الإبتدائى ، لأنه إذا حلت هذه المشكلات فإنه يكون من السهل إزالة العقبات التى تواجه التعليم الثانوى والجامعى

التعليم عن طريق التدريب المهنى

يعتقد غاندى أن النظام القائم فى التعليم الابتدائى ليس فقط نظاماً تالفاً ، بل أيضاً نظاماً ضاراً . فإن معظم الأطفال قد ضلوا الطريق وابتعدوا عن آبائهم وعن المهن التى خلقوا من أجلها . فهؤلاء الأطفال غرست فيهم عادات شريرة ، وتأثروا بطرق الحياة الموجودة فى المدينة ، وزودوا بكلمات تافهة يمكن أن نسميها

---

(١) هذه المقترحات ذكرت فى الفصل الأول — (المترجم)

أى شيء غير «تعليم» . والعلاج الوحيد ، كما يراه غاندى ، يوجد فى التعليم عن طريق المهنة أو التدريب اليدوى . وإن غاندى فى هذا لا يلقى الكلام على عواهنه ، بل كانت له خبرة فى تدريب أولاده وأطفال مزرعة تولستوى فى جنوب أفريقيا ، هؤلاء الأطفال الذين لايفصلهم عن بعض جنس أو عقيدة ، منهم من كان طيباً والبعض كان شريراً ، هؤلاء هم الذين كان يعلمهم عن طريق التدريب المهنى ، مثل النجارة ، وعمل الأحذية الذى حذقها غاندى من صديقه كالنباخ والذى تعلمها بدوره فى دير ترابست . وقد أيقن بأن أولاده والأطفال الآخرين الذين دربوا فى مزرعة تولستوى لم يخسروا شيئاً ولو أنه لم يمكنه أن يزودهم بالتعليم الذى يرضيه ويشبعهم ، ويرجع ذلك إلى وقته المحدود وأعماله التى لا نهاية لها .

إن المحور الذى ترتكز عليه سياسة غاندى فى التعليم ليس المهن فى حد ذاتها ، لكنه التعليم عن طريق التدريب اليدوى — الذى يشتمل على القراءة والكتابة ، التاريخ والجغرافيا ، الحساب والعلوم وغيرها — كل هذه المواد المدرسية تدرس خلال التدريب اليدوى . وقد يعترض البعض على مثل هذه السياسة بحجة أنها تطابق ما كان يدرس فى القرون الوسطى ، بيد أن هذا الإعتراض غير مبنى على أساس من الدراسة ، حيث أن التدريب المهنى فى القرون الوسطى كان أبعد ما يكون عن الأغراض التعليمية . ففى ذلك العصر كان الذين يولدون لمهن معينة ينفرون منها ويتركونها ، بل غالباً ما يتولون أعمالا كتابية ، وهكذا فقدهم الريف . وكان من نتيجة ذلك أنه إذا ذهبنا إلى أى مكان ما فى القرية فلن نجد نجاراً ماهراً أو حداداً حاذقاً لمهنته . إن الصناعات الريفية قد تدهورت تقريباً ، ودولاب الغزل الذى أصابه الإهمال فى القرى الهندية نقل لحى لانكشير بإنجلترا ثم تطور تطوراً كبيراً ؛ فشكراً للعبقرية الإنجليزية فى تطور الحرف إلى الحد الذى أصبحت عليه الآن .

النول – لعبة منتجة

إن تكوين المواطن الريفى الصالح يتوقف على تعليم التلاميذ جميع الفنون والعلوم الخاصة بحرفة ما عن طريق التدريب العملى . وهذا هو التعلم الذى ينبثق من الحياة – مثال ذلك ، فإننا إذا علمنا غزل النسيج للتلاميذ فإنه ينبغى أن تزودهم بالمعارف الخاصة بالأنواع المختلفة للقطن ، الأراضى المختلفة التى يزرع فيها فى الولايات الهندية ، تاريخ تدهور الصناعات الريفية ، والأسباب السياسية التى أدت إلى هذا التدهور ويشمل : تاريخ حكم الإنجليز للهند ، معلومات فى الحساب وغيرها . وقد حاول غاندى إجراء هذه التجربة على حفيده عندما كان طفلا ، وكان نادراً ما يشعر بأنه يتعلم ، لأنه فى كل الوقت كان يلعب ويضحك ويغنى أثناء التدريب .

وقد خص غاندى النول بالذكر عسى أن يقوم المؤتمرون بوضع أسئلة تتصل به – بجانب هذا فلدى غاندى خبرة طويلة بالنول ، وأحس بقوته وسحره ، وخاصة لأن النول كحرفة لصنع الملابس يمكن أن تدرس فى العالم أجمع ، وأنها لا تتكلف شيئاً يذكر من النفقات . فقد أثبتت هذه الحرفة ، دون أدنى شك ، صلاحيتها أكثر مما كان متوقعاً لها . ومن نتيجة هذا البرنامج العملى ، إلى الحد الذى نفذ به ، أن تكونت هيئة من سبعة وزراء برلمانيين فى سبع ولايات للنراسة إمكانية تعميم هذا النوع من التعليم . ولا شك أن تأدية هذه الهيئة لرسالتها يتوقف على مدى النجاح الذى يصادفنا فى تنفيذ برامجنا .

فكر غاندى فى أن تكون الفترة المخصصة للعمل على النول سبع سنوات دراسية تتحول خلالها دراسة النول إلى دراسات تطبيقية فى عمليات النسيج (وتشتمل على الصباغة والرسم وغيرها) وهكذا يمكن أن ننتج جميع أنواع الملابس التى تتلاءم مع تقاليدنا .

وقد حرص غاندى كل الحرص فى مشروعه هذا على أن يدفع أجر المعلم من حصيلة إنتاج الأعمال اليدوية للتلاميذ . كما آمن كل الإيمان بأنه ليس هناك أية وسيلة عملية أخرى لدفع أجور المعلمين الذين يعلمون الملايين من الأطفال الهنود . نحن لن يمكننا أن نقف مكتوفى الأيدى حتّى تأتى لنا إيرادات جديدة ، أو حتّى ننقص من مصاريف الدفاع وغيرها . وطلب غاندى من المؤتمرين أن يتذكروا بأن مناهج التعليم الابتدائى سوف تشمل المبادئ الأولية لحفظ الصحة ، والصحة العامة ، والتغذية ، وكيف يؤدى التلاميذ أعمالهم الخاصة ، وكيف يساعدون عائلاتهم فى المنزل . . الخ. فالجيل الحالى من النشء لا يعرف النظافة ، أو الإعتماد على النفس ، وحتّى من الناحية البدنية فإن هذا الجيل قد تدهور . ولذا فإن غاندى يدرب الأطفال إجبارياً على التربية الرياضية عن طريق الموسيقى والألعاب البدنية وغيرها .

الحل الوحيد

واتهم البعض غاندى بأنه يعارض التدريب النظرى . ما أبعد غاندى عن هذا الاتهام !! وكل ما أراد أن يحققه هو أن يقود التلاميذ إلى الطريق الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه . حتّى الاتجاه نحو الاعتماد على النفس قد قوبل من البعض بالهجوم . وقيل فى نفس الوقت إننا نصرف الملايين من الجنيهات على التعليم الإبتدائى ، ورغماً من ذلك فإننا نستغل الأطفال استغلالا مادياً . لقد خشوا أيضاً من الإسراف والتبذير . كل هذه المخاوف قد أثبتت التجارب خطأها . أما من ناحية استغلال الأطفال أو وضع مسئوليات مادية على كواهلهم ، فقد أشار غاندى بأن وضع المسئولية على كاهل الطفل سوف ينقذه من الدمار . أما النول اليدوى فيعتبر لعبة مسلية كافية ليلعب الطفل بها ؛ ولا يقتصر الأمر على

كونها لعبة عادية وذلك لأنها تؤدى إلى الإنتاج . حتى اليوم يقوم الأطفال بمساعدة أسراتهم إلى حد محدود . فإن أطفال مدرسة سيجاون يعرفون ما يتصل بالعمليات الزراعية أكثر من غيرهم ، ذلك لأنهم مارسوا الزراعة مع آبائهم فى الحقول . فمثلا أثناء تشجيع الطفل ليغزل النسيج أو يسهم مع أبيه فى العمليات الزراعية ، فإنه دون شك لا يشعر بالانتماء فقط إلى الوالدين بل أيضاً إلى القرية والدولة . ومن ثم فإنه يحس بوجوب عمل شىء مقابل كل ذلك . هذا ما قاله غاندى للوزراء « إنكم تجعلون الأطفال عديمى الحيلة وبؤساء فى هذه الحياة لأنكم تشعرونهم بأنكم تتصدقون عليهم بالتعليم؛ فعندما يشعر الأطفال بأنهم يدفعون مقابل تعليمهم عن طريق العمل الذى يؤدى هنا فسوف نجعل منهم أفراداً يتميزون بالشجاعة والثقة فى النفس . »

هذا النظام ينبغى أن يكون عاماً للجميع بما فى ذلك الهندوسين ، المسلمين ، الباسيسيين ، والمسيحيين. وسئل غاندى لماذا لم يركز بأى صورة ما على الدروس الدينية ، فأجاب بأنه يعلم الأطفال الدين العملى — دين الاعتماد على النفس .

التجنيد الإجبارى للخدمة

واستطرد غاندى فقال : إن الدولة تُعد مسئولة عن إيجاد أعمال للتلاميذ الذين تعلموا على نظام التدريب المهنى كلما دعت الضرورة إلى ذلك . أما من ناحية المعلمين فإن الأستاذ شاه قد اقترح نظام التجنيد ؛ وبين مزاياه وذلك بتدعيم هذا النظام بأمثلة من إيطاليا وغيرها من الدول . فإذا كان موسولينى قد أثر على شباب إيطاليا لتأدية خدمات إلى بلدهم ، فلماذا لا يستفاد من خبرته ؟ هل من العدل تدعيم التجنيد الإجبارى لشبابنا لمدة سنة أو أكثر قبل بدء حياتهم العملية ؟ ولماذا نخشى أن تكون عملية إستعباد ؟ إن الشباب ساهم كثيراً فى إنجاح الحركات التحررية فى السبعة عشر عاماً الماضية ، وما يدعو إليه غاندى اليوم لا يتعدى أن يهب الشباب نفسه لمدة سنة واحدة من حياتهم لخدمة الدولة .

فالتشريع إذاً كان ضرورياً فى هذه الحالة ، ولن يكون إجبارياً لأنه لن يصدق عليه دون موافقة الأغلبية فى البرلمان .

ثم تطرق الحديث إلى اتجاه آخر عندما سألهم غاندى إذا كان التعليم الذى يزود به الأطفال عن طريق التدريب المهنى يصادفُ هوى فى نفوسهم أم لا . وإن اختيار نجاح هذا النوع من التعليم يتوقف على مدى اعتماد التعليم الابتدائى فى نفقاته على نفسه . أما هؤلاء الأطفال الذين يتزودون بالتدريب المهنى ينبغى أن يكونوا قادرين على دفع مصاريف تعليمهم ويصبحوا جماعات منتجة أثناء فترة السبع سنوات التى يقضونها فى المدرسة . أما التعليم العالى ما هو إلا فكرة حضرية نبتت ونمت فى المدينة إلى حد كبير . على أيه حال ، لم يشأ غاندى أن يحكم عليه بالفشل الذريع كما حكم على التعليم الابتدائى فى الهند ، ولكنه أوضح بأن نتائج التعليم العالى غير مرضية . ثم ألقى غاندى عليهم سؤالا : إذا كان التعليم العالى ناجحاً فى الهند فلماذا لا يجد خريجو الجامعات عملا يتعيشون منه ؟

إن النول اليدوى الذى اقترحه غاندى كمثل حى من أمثلة التعليم قد عُرض للمناقشة ، وقد أناب الأستاذ فينوبا الذى له خبرات كثيرة غنية فى هذا النول ليجيب على الأسئلة والاعتراضات التى قد تقدم من المؤتمرين فى هذا الموضوع . وقال غاندى أيضاً أن الأستاذ كاكا ساحب سوف يتمكن من التحدث عن هذا المشروع ولو أن خبرته كانت نظرية أكثر منها عملية — وهو الذى لفت نظر غاندى إلى كتاب « التعليم للحياة» لأرمسترونج وخاصة الفصل الذى يتحدث عن « تعليم اليدين» . إن الفقيد مارهوسنان داى كان محاميا، لكنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بأنه بدون استعمال اليدين والرجلين فإن العقل يضمر ويذبل ، وحتى إذا عمل العقل فإنه فى هذه الحالة يصبح مأوى للشيطان . وقد علم تولستوى أيضاً الناس نفس هذه الدروس عن طريق قصصه الكثيرة .

سياسة مبنية على عدم العنف

وختم غاندى حديثه إلى المؤتمرين بأن لفت نظرهم إلى أساس مشروعه الذى يستهدف قيام التعليم الابتدائى بالصرف على مشروعاته عن طريق إنتاج المدارس. « هناك اختلافات عامة بيننا » ولكنها ليست بالغريبة علينا. فقد كانت إنجلترا أيضاً فى « حروب الوردتين »[1] تقاسى الأمرين، أما الآن فإن الاستعمار الإنجليزى هو علو العالم. فإذا أردنا أن نقلع عن هذا النزاع العام أو النزاع الدولى فعلينا أن نبدأ بأساس راسخ نقى، هذا الأساس هو توجيه جيلنا الناشئ نحو الخطة التعليمية التى أحاول تنفيذها. هذه الخطة تنبع من فلسفة عدم العنف. وقد اقترحت هذه الخطة عندما عقد الشعب العزم على مقاطعة إنجلترا. وأود أن أحدثكم بأنه حتى إذا لم يكن للهند خسارة فى ميزانية الإيرادات، وأن مالية الدولة بلغت غاية الكمال، فإن هذا النوع من التعليم لابد وأن يكون شرطاً ملزماً للدولة إذا شئنا ألا نجعل الأطفال يتجهون نحو المدينة تاركين القرية وراءهم. ينبغى علينا أن نجعل منهم ممثلين حقيقيين لثقافتنا، ولحضارتنا، وللعبقرية الحقيقية الكامنة فى حياة شعبنا. ولن يمكننا تحقيق ذلك بأية صورة كانت إلا إذا وجهناهم نحو هذا النظام من التعليم الابتدائى الذى يقوم بسد نفقاته بنفسه. وليتعلموا أن أوروبا ليست مثلا يحتذى به، وأنها تخطط برامجها على أساس العنف لأنها هى نفسها تؤمن بالعنف. إنى قد أكون آخر إنسان يقلل من المجهودات التى تبذلها روسيا، ولكنى أقرر الحقيقة بأن النظام القائم

---

(١) كان هناك صراع من بدء القرن الثالث عشر فى إنجلترا على تولى الملك بين أسرتين: أسرة لانكاستر وأسرة يورك. وقد اتخذت كل من هاتين الأسرتين وردة شعاراً لها، وكان شعار الأولى حمراء والثانية بيضاء، ولهذا أطلق على الحروب التى قامت بينهما « بحروب الوردتين » وقد قتل فى هذه الحروب عدد كبير من النبلاء الإقطاعيين. (المترجم)

فيها مبنى على أساس القوة والعنف . فإذا وطدت الهند العزم على أن تكف عن العنف ، فإن هذا النظام من التعليم الذى اقترحه سوف يصبح جزءاً مكملا للمبادئ التى ينبغى علينا أن نصونها ونرعاها . وقد يقول قائل إن إنجلترا تصرف الملايين من الجنيهات على نواحى التعليم ، وتقوم أمريكا أيضاً بالمثل ، ولكن كيف ننسى الحقيقة بأن كل هذا الثراء الفاحش كان نتيجة لاستعمال أساليب استغلال الشعوب . لقد عملت هاتان الدولتان على إعطاء أمثلة فى فن الاستغلال حتى أصبح علماً من العلوم التى يطبقانها فى الحياة . وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت هاتان الدولتان قادرتين على توفير التعليم الباذخ لأبنائهما ، هذا التعليم الذى يكلفهما الكثير من النفقات . نحن شعب ليس لديه القدرة ، أو أية فكرة لاستغلال الشعوب الأخرى ، ومن ثم فليس لدينا أى مخرج آخر غير اتباع هذه الخطة من التعليم التى صممت على أساس من عدم العنف » .

٩ ــ عصر الآلة :

وقد افتتح غاندى الاجتماع بعد الظهر ليجيب على بعض النقد الذى وجه إلى مشروعه التعليمى . ولم يكن النول اليدوى فقط هو المحور الذى أثير حوله بعض النقد ، لكن ما اتفق عليه هو أن النول لا يخرج عن كونه إحدى الحرف التى يمكن تعميمها فى مدارس الهند بالولايات المختلفة . فهناك حرف أخرى مثل صناعة الورق ، وصناعة الأقفاص من الجريد وغير ذلك . إن وظيفة المسئولين عن التعليم هى إيجاد الحرف التى تتلاءم وبيئات المدارس . ثم أنذر غاندى هؤلاء الذين يعشقون الآلة قائلا إن هناك خطراً كبيراً يواجه الإنسانية إذا تحول الناس من فطرتهم الإنسانية إلى آلات صماء . ولا شك أن هذه هى نهايتنا إذا ركزنا اهتمامنا على الآلة فى تعليمنا . أما هؤلاء الذين يرغبون فى أن يحيوا تحت نير الآلة فإن مشروعهم التعليمى بالنسبة إليهم لا فائدة تجنى من ورائه ؛ وقال

غاندى أيضاً بأنه من المستحيل أن يعيش القرويون الهنود عيشة تتميز بالآلية. وهنا فى الهند ثلاثمائة مليون آلة حية ، ومن الخطأ الكبير أن نفكر فى إحضار آلات صماء لنضيفها إلى هذا العدد الضخم . فالدكتور زاكير حسين جانبه الصواب عندما تحدث عن هذا المشروع بقوله إنه ملائم من الناحية التربوية بصرف النظر عن المبادئ المثالية . وكانت هناك امرأة فى المؤتمر قد درست نظام المشروع وقابلت غاندى فى اليوم التالى وقالت له إن هناك اختلافاً بيناً بين طريقة المشروعات والمشروع الذى يهدف إليه فى التعليم . لكن غاندى لم يطلب من أحد أن يتقبل مشروعه دون إقناع ، وكل ما بشر به هو أنه فى حالة تنفيذ الناس لمشروعه فى القرى فإنه لن يكون هناك عبيد فيها ، بل عمال مهرة متكاملون تخرجوا من هذا النوع من المدارس . إن أى عمل يقوم به الأطفال ينبغى أن يقدر بما لا يقل عن (بيسان)[1] فى الساعة .

ثم ناشد غاندى أعضاء المؤتمر بألا يقبلوا أىّ شىء يتصل بمشروعه فى التعليم لمجرد المجاملة له ، وقال لهم إنه على أبواب الموت ولم يفكر قط فى دفع أى إنسان إلى قبول مشروعه هذا . لذا فإن المشروع التعليمى الذى يقترحه ينبغى أن يتقبله الناس بعد فهمه فهماً كاملا حتى لا يعرضوا عنه بعد وقت قصير . وقد اتفق تماماً مع الأستاذ شاه فى أن الولاية التى تقصر فى تزويد المتخرجين من هذه المدارس بالأعمال تعتبر ولاية لا يرجى منها أى خير . إن تقديم الصدقة ليس هو الحل المناسب لمشكلة البطالة . ولذا يقترح غاندى أن يزود خريجو مدراسه بالعمل ويقدم لهم الغذاء إن لم يكن المال أيضاً . إن الله لم يخلقنا لنأكل ونشرب ونتزوج ، ولكن لنكسب أيضاً قوتنا بالعمل والعرق .

---

(١) البايس pice عملة هندية قيمتها ربع الأنا أى ما يوازى مليماً بعمله الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة . المترجم

١٠ — قرارات مؤتمر التعليم :

وقد اتخذت القرارات الآتية فى اليوم الثانى والأخير للمؤتمر :

١ — يرى أعضاء المؤتمر أن التعليم ينبغى أن يكون إجبارياً ومجاناً لمدة سبع سنوات فى جميع أنحاء الهند .

٢ — وأن اللغة التى يدرس بها فى المدارس الهندية تكون اللغة القومية .

٣ — وأن المؤتمر يوافق على الإقتراح المقدم من المهاتما غاندى الذى يوصى فيه بأن تكون عملية التعليم خلال مرحلة التعليم الإبتدائى تتركز فى بعض الأعمال الإنتاجية اليدوية ؛ وأن كل القدرات التى تنمى فى التلاميذ والتدريبات التى يتدربون عليها ينبغى، كلما أمكن ذلك ، أن ترتبط ارتباطاً متكاملا مع الحرفة الرئيسية التى تختار حسب البيئة التى يعيش فيها التلاميذ .

٤ — وأن المؤتمر يتوقع أن يؤدى تدريجياً هذا النظام التعليمى إلى تغطية مكافأة المعلمين . وبعد ذلك تكونت لجنة مهمتها أن تضع تخطيطا لمنهج يتمشى مع القرارات المذكورة على أن يقدم هذا التقرير إلى رئيس المؤتمر فى مدة لا تتجاوز الشهر .

١١ — ختام المؤتمر :

وقد اختتم غاندى المؤتمر قائلا إنه يحمل للأعضاء كل آيات الامتنان لتحملهم مشقة الحضور وتعاونهم معه ، وإنه ينظر إلى المستقبل وكله أمل فى أن يزداد ويزدهر هذا التعاون . وأرسل ما لافياجى برقية إلى غاندى يحذره فيها من هذا العمل الذى يقوم به، لكن غاندى أراحه قائلا إن هذا المؤتمر تمهيد لهؤلاء الذين يسعون وراء كشف الحقيقة . إن كل عضو دعى لحضور هذا المؤتمر له الحرية ليدلى بدلوه ويعرض من الاقتراحات والنقد ما يشاء . ولم يقصد غاندى قط

أن ينفذ سياسته عن طريق القوة أو العنف فالفكرة التي وراء التعليم العام والخاص فى الهند قديمة قدم الأفكار التي وضعها الاستعمار وغرسها فى نفوس الهنود ، هذه الأفكار كانت تحض دائماً على عدم التعاون . أما السياسة التعليمية فى الشكل الحالى الذى وضعه غاندى فإنها حرص على أن تلائم ظروف الهند المتغيرة .

١٢ ــ خطوة إلى الأمام :

إن سجلات العمل للمؤتمر التعليمى محفوظة فى مكان آخر ، وهى تسجل مرحلة هامة فى التقرير الذى قدمته إلى الشعب وإلى وزراء البرلمان . وكان من حسن الطالع أن كثيراً من الوزراء قد حضروا المؤتمر ، ودار معظم نقدهم حول فكرة قيام التعليم الابتدائى بالصرف على نفسه . لذا فإن المؤتمر قد أعلن قراراته بحذر . ومن ثم فإن المؤتمر سوف يتخذ طريقاً غير واضح المعالم ، وذلك لأنه ليس أمام خطة واضحة قاطعة يسير عليها ويتبع خطواتها . فإذا صادفت الفكرة التى أدعو إليها روحاً طيباً فإنها سوف تحقق نفسها دون تعثر أو فشل. أما كلمتى لهؤلاء الذين يؤمنون بالفكرة التى أدعو إليها وهى أن التعليم الابتدائى يكفى نفسه من الناحية المادية ، فهى أن عليهم واجب وضع هذه الفكرة فى قالب عملى عن طريق تنفيذها فى مدارس تجريبية .

أما من حيث الموضوع الخاص بخفض الفترات المقررة للغة الإنجليزية والزيادة فى تعليم الحرف فى المرحلة الابتدائية والثانوية ، فإنه قد صادف موافقة إجماعية مذهلة . فإن الحقيقة التى تدعو إلى تنمية التلاميذ والتلميذات ككل خلال تدريبهم على حرفة ما إنما تؤدى إلى إنقاذ المدارس من كونها مصانع إنتاجية فقط . بالإضافة إلى ذلك فإن درجة الإتقان المطلوبة فى المهنة التى يتدرب عليها التلاميذ فى المدرسة هى نفس الدرجة من الإتقان التى نطلب أن

يصل إليها التلاميذ فى المواد الدراسية الأخرى التى يدرسونها .

إن الأعمال والمجهودات التى قامت بها اللجنة التى يشرف عليها الدكتور زخارى حسين سوف تعرض عليكم متضمنة المنهج الذى يمكن تنفيذه فى تعليم التلاميذ والتلميذات من فرقة إلى أخرى .

فالنقد الذى وجه إلى قرارات المؤتمر ينحصر فى الخاتمة التى ذكرت فى آخر هذه القرارات ، واعتبرت أنها غريبة عن الهدف الذى من أجله عقد المؤتمر . وقد أصدر البعض حكمه بأنه مؤتمر غير مجد . وقد يكون من المستحيل حقاً أن تدعو مربين بصورة عشوائية ليعبروا عن آرائهم فى موضوع يعتبر ، دون شك، تخطيطاً ثورياً فى التعليم . من أجل ذلك فإن الدعوات ينبغى أن ترسل فقط إلى هؤلاء المعلمين الذين سبق لهم على الأقل أن مارسوا التدريب المهنى . أنا شخصياً لم يخطر لى بأن الذين يعملون فى ميدان التعليم العام سيقبلون هذه الفكرة الجديدة بكثير من العطف . لذا فإن عدداً أكبر من المربين سوف يدعى دون شك ليناقش المشروع حال عرضه على الملأ فى إطاره النهائى بواسطة اللجنة التى يشرف عليها الدكتور زخارى حسين . وإنى أطلب من هؤلاء المربين الذين قد يكون لديهم بعض الاقتراحات المفيدة أن يرسلوها فوراً إلى « شرى أرنايا كام » مقرر وسكرتير المؤتمر بواردها .

إستطرد أحد المتحدثين فى المؤتمر فى حديثه قائلا إن تعليم البنات والأولاد الصغار يكون أكثر جدية ونفعاً عندما يتولاه المعلمات بدلا من المعلمين ، وأمهات بدلا من العوانس . ومن ناحية أخرى ، فإن أعضاء المؤتمر أكثر منى علماً للرد على المشروع الذى عرضه الأستاذ شاه . ومما لا شك فيه ، أن هناك فرصة وطنية جليلة للنساء اللاتى عندهن من وقت الفراغ ما يساعدهن على تأدية خدمات تعتبر من أنبل الخدمات التى تؤدى للوطن . أما إذا رغبن رغبة أكيدة فى تأدية هذه الخدمات وجب أن يتدربن تدريباً أولياً . ومن ثم فإن النساء اللاتى يسعين وراء الكسب فينبغى عليهن ألا يفكرن فى الالتحاق بركب

هذه الحركة الوطنية حيث لن يكون فى استطاعتهن تحقيق الغرض الذى نرمى إليه . أما هؤلاء المتطوعات للعمل فى المشروع ، فينبغى عليهن أن يتقدمن بروح صافية للعمل ، وأن يجعلن من هذا العمل رسالة يعشن من أجلها . فإذا عملن بروح يغلب عليها الأنانية فإنهن سوف يصبن بالفشل وخيبة الأمل . أما إذا اندمجت المرأة الهندية المثقفة مع القرويين والقرويات وانضم إليهن أولادهن ، فإنهن بهذا الأسلوب من الخدمات يقمن بثورة إيجابية كبيرة فى حياة القرية الهندية . فهل لنا أن نطمع فى استجابتهن لمشروعنا هذا ؟

الفصل الثالث

التعلم الذى يسد نفقاته بنفسه

١٣ – التعليم والضرائب التى تفرض على الخمور :

إن حل مشكلة التعليم من حيث الميزانية تتعلق بكل أسف بإلغاء الضرائب التى كانت مفروضة على الخمور . هناك دون شك طرق ووسائل للحصول على ضرائب جديدة ، وهذا ما دعا الأستاذان شاه وكامبهاتا إلى عرض رأيهما فى أنه يمكن للدولة الفقيرة أن تزيد من دخلها عن طريق فرض ضرائب جديدة . وحتى وقتنا هذا فإننا لم نفرض ضرائب عادلة على الأغنياء تتلاءم مع دخولهم . وهنا فى الهند ، كما هو موجود فى جميع دول العالم ، فإن الغنى الفاحش لبعض الأفراد ينبغى أن يعتبر جريمة ضد الإنسانية الهندية . إن الضرائب فى إنجلترا ، كما عرفت ، ارتفعت إلى أكثر من ٧٠ ٪ من الدخل فوق الحد الأقصى الذى وضعته الحكومة . وإنى لأعجب لماذا لم تأخذ الهند بهذا النظام فى الضرائب ، بل ولماذا لم تأخذ بنظام أكثر من هذا فائدة للحكومة ؟ لماذا لاتكون هناك ضرائب بعد وفاة أصحاب الملايين ؟ إن أبناء أصحاب الملايين الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد وقد ورثوا ملايين عديدة ، فإنهم كثيراً ما يخسرون ما ورثوه ؛ وتعود أيضاً هذه الخسارة على الدولة . وهكذا ينبغى أن تدخل هذه الملايين فى إيرادات الدولة . بجانب هذا ، فإن الخسارة التى تلحق الدولة قد تكون أيضاً عن طريق الأبناء الذين يرثون الملايين من الروبيات عن آبائهم وينقصهم الدراية والمعرفة فى استغلالها . بل وكثيراً ما يستهترون بهذه الثروة ويصرفونها بغير حساب . لذا فإن لم تفرض الحكومات المحلية فى الهند قوانين خاصة بالضرائب بعد الوفاة فلن

يكون هناك أى أمل فى زيادة إيراداتها عن طريق هذا السبيل .

ولكوننا دولة متخلفة فى التعليم فلن يكون هناك أى بصيص من أمل فى تأدية ما علينا من واجبات نحو جيلنا الناشيء فى وقتنا هذا ، إذا اعتمدت برامجنا كلية على المال . هذا هو ما دفعنى إلى أن أطرح رأيى بكل صراحة أمام الناس مقترحاً بأنه ينبغى على التعليم أن يسد نفقاته بنفسه ، ولو أدى الأمر إلى المخاطرة بضياع كل سمعتنا الحميدة لمقدرتنا على الصرف عليه — وما أعنيه بالتعليم هو ذلك الشيء المتكامل الذى ينبثق عن طريقه أحسن ما فى الطفل والرجل — من ناحية البدن والعقل والروح . إن التثقيف ليس بالشيء الذى نقف عنده ، أو حتى هو بالشيء الذى نبدأ به ؛ لكنه فقط الوسيلة التى عن طريقها نعلم الرجل والمرأة . بمعنى آخر أن لتثقيف فى حد ذاته ليس بالتعليم . ولذا فإنى أفضل أن أربى وأثقف الطفل عن طريق حرفة نافعة تجعله منتجاً فى الوقت الذى يمارس فيه التدريب عليها . على هذا النمط ، فإن كل مدرسة يمكنها أن تسد نفقاتها بنفسها ، على شرط أن تأخذ الدولة على عاتقها تسويق منتجات هذه المدارس .

وإنى أعتقد تماماً بأن أسمى مراحل العقل والروح يمكن الوصول إليها باتباع هذا النظام من التعليم . ينبغى ألا تعلم الحرفة بصورة يغلب عليها الآلية كما هو متبع الآن فى كثير من المدارس، بل يجب أن تعلم بأسلوب عملى صحيح — أى أن على التلميذ معرفة « لماذا » ، «ولأجل ماذا » أجريت كل عملية من عمليات التعليم . إنى لا ألقى الكلام على عواهنه دون أن يكون لدى بعض الثقة ، لكن عندما أتكلم فى هذا الموضوع إنما أتكلم من خبراتى العملية الطويلة . وقد عملت على تطبيق هذه الطريقة بصورة متكاملة عند ما كنت أعلم حرفة الغزل للعمال . بجانب هذا ، قمت بتعليم صنع الأحذية متبعاً نفس الطريقة — ولذا كانت النتائج مرضية . وأود أن أؤكد بأن هذه الطريقة لا تستبعد ضرورة تعليم التاريخ والجغرافيا بل إنى وجدت أن التاريخ والجغرافيا يثيران اهتمام الدارسين عندما تنتقل

المعلومات إليهم عن طريق الكلمات الخارجة من الفم . باتباع هذه الوسيلة يمكننا أن نعلم الدارس مقدار عشر مرات ما نعلمه عن طريق القراءة والكتابة . وعلى أى حال فإن رموز حروف الهجاء يمكن تعليمها مؤخراً عندما يعرف الطفل كيف يميز بين القمح والقش ، وعندما ينمو ذوقه ويسمو بإحساسه . قد يرى البعض أن هذا الاقتراح يؤدى إلى ثورة فى التعليم ، ولكن تنفيذه سوف يوفر علينا مجهودات شاقة . وما يحصل عليه الطفل فى سنة واحدة يوازى ما يحصله فى ست سنوات ، وهذا يعنى أننا نقتصد من جميع النواحى . وطبيعى أن التلميذ يتعلم الحساب أثناء تدريبه على حرفة ما .

إنى أعلق أهمية كبيرة على التعليم الابتدائى الذى ينبغى أن يشمل أيضاً التعليم الثانوى مع تقليل عدد الفترات المخصصة للغة الإنجليزية . وحتى إذا نسى جميع التلاميذ المعلومات النظرية التى حصلوا عليها فجأة ، فإن مقدار الخسارة التى يتحملها من هذا النسيان بضع مئات من آلاف التلاميذ لا يقارن إطلاقاً بالخسارة التى تلحق بالدولة . وأقصد بذلك الخسارة التى لا تزال تلحق بالثلاثمائة مليوناً من الهنود . وعلى كل حال ، فإن مقياس معرفة القراءة والكتابة لا يعد مقياساً كافياً ليظهر لنا مدى الجهل الموجود عند ملايين القرويين .

ولكم أود أن أحدث انقلاباً فى التعليم الجامعى حتى يمكن أن يتلاءم وحاجات الوطن . سوف يكون هناك مستويات من مهندسى الميكانيكا وغيرهم يلتحقون بالمصانع المختلفة التى ينبغى أن تدفع لهم أجراً نظير تدريب الخريجين الذين تحتاج إليهم هذه المصانع . وإذا تبنينا هذه الفكرة ، فإن نقابة المهندسين يمكنها أن تنشىء كلية لتدريب المهندسين تحت إشراف من الدولة ، ونقابة الغزل والنسيج تنشىء كلية لتدريب الخريجين من الكليات حسب حاجتها إليهم وغيرها

من النقابات عليها أن تنشيء ما تحتاج إليه من كليات عملية . أما التجارة فسيكون لها كلية خاصة بها ، ويتبقى الآن الفنون والصيدلة والزراعة . فنى وقتنا هذا نرى أن كليات الفنون تعتمد بعض الشيء على إيراداتها . ولذا أقترح أن توقف الدولة الصرف على هذه الكليات . وينبغى أن تتبع كليات الطب مستشفيات مسجلة لدى الدولة . وبما أن الأطباء مشهود لهم بوفرة الإيراد فإنه من المتوقع أن يسهموا بالمال فى إنشاء كليات الطب والصرف عليها . أما إذا كانت كليات الزراعة حريصة على اسمها وسمعتها فيجب إذن أن تعتمد على نفسها مادياً . ولدى خبرة مؤلمة من بعض خريجى كليات الزراعة ، فإن معلوماتهم سطحية لاعمق فيها ، وتنقصهم الخبرة العملية فى ميادين الزراعة . أما إذا ألحقوا طلبة كلية الزراعة فى فترة التمرين العملى لهم بإحدى المزارع الأهلية وقاموا بما عليهم من واجبات نحو الدولة فذلك يقلل من الضرر الذى يصيب أصحاب المزارع من خريجى كلية الزراعة الذين يلحقون بالعمل فى هذه المزارع بعد التخرج من كليتهم . أى نعم ، إن الصورة التى رسمتها ليست بالصورة المبنية على الخيال، بل يمكن تحقيقها إذا نفضنا عن أنفسنا هذا الكسل الذى يحيطنا من كل جانب وإذا كان أيضاً تفكيرنا يأخذ طريقاً منطقياً . وبذلك سوف نجد أن ما أدعو إليه هو، دون شك، الحل العملى لمشكلة التعليم الجامعى الذى يواجه وزراء البرلمان وأيضاً البرلمان نفسه . فإذا كانت القوانين التعليمية التى صدرت أخيراً بإيحاء من الحكومة الإنجليزية ملزمة فى تطبيقها، فإنى مؤمن بأن الوزراء لديهم القدرة على تنظيم الخدمات وتنفيذ سياستهم حسب مصالح الشعب الهندى . وكل ما أخشاه أن تكون المصالح الحكومية قد حذقت فن وضع السياسات التى يتخيلها الحكام الهوائيون فى قالب

عملى . دع الوزراء يضعون سياسة حازمة كأحسن ما يتخيلونها ، واترك الخدمات تتحدث عن مدى ما أنجزوه من وعود .

بقى الآن أن نتحدث عن مشكلة المعلمين . إنى معجب بفكرة الأستاذ ك. ت. شاه التى عبر عنها فى إحدى المقالات موجهاً الأنظار إلى ضرورة تطبيق مشروع الإلزام على الرجال والنساء للتدريس فى المدارس الهندية . وهذا الإلزام يقضى بأن يدرس الرجال والنساء لمدة خمس سنوات تقريباً فى نوع التعليم الذى يتلاءم مع قدراتهم ، على ألا يتقاضوا أجراً يزيد على المصروفات الضرورية اللازمة لهم — هذا الأجر ينبغى أن يكون متمشياً مع المستوى الاقتصادى للدولة . بجانب هذا فإن الأجور والمرتبات الكبيرة التى يتقاضاها المعلمون وأساتذة المعاهد العليا يجب أن تنخفض عما هى عليه الآن . وأخيراً أود أن أصرح بأن معلم القرية ينبغى أن يكون أكثر قدرة وكفاءة حتى يحقق الرسالة التى وكلت إليه فى تكوين النشء القروى تكوينا صالحاً .

١٤ — الحيرة فى التعليم :

« إن التهكم العنيف الموجه إلى الإصلاحات الجديدة مرجعه إلى أننا لا نعتمد على شىء فى تمويل مشروعاتنا الثقافية إلا على الضرائب التى فرضتها الحكومة على الخمور من أجل تعليم أطفالنا » . وقد علق غاندى على هذا التهكم فى كثير من المناسبات منذ أن عين وزراء برلمانيون قائلا . « هذه هى المشكلة التى تواجهنا فى التعليم ، وينبغى ألا تثبط هذه المشكلة من همتنا . بل وجب علينا أن نحلها . ولكن الحل الذى نختاره لها ينبغى ألا يكون على حساب مثلنا العليا التى تحرم بعض الأشياء مهما كان الثمن الذى ندفعه . إنها لمعرة ومذلة لنا عند ما نفكر بأنه بدون ضرائب على الخمور لن يحصل أولادنا على التعليم .

ولكن إذا دعا الأمر ورضخنا لذلك ، فإننا نرضخ على مضض . فإذا ألقينا جانباً لغة الأرقام ، وإذا تغاضينا عن تعليم أولادنا هذا النوع من التعليم الذى يدرس فى مدارسنا الآن ، فإن مشكلة التمويل المالى لن تثبط من عزيمتنا »
إن كلمات غاندى هذه تفسر لنا جلياً اهتمامه بجمع شمل المعلمين ليتكاتفوا ويتعاونوا حتى يمكن وضع نظامَ فى التعليم أقل نفقة من النظام الحالى ويتلاءم أيضاً واحتياجات السواد الأعظم من سكان الريف .

« هل قولك هذا يفصح عن رغبتك فى أن تمحو نظام التعليم الثانوى ، وأن تجعل الأطفال يتعلمون فى مدارسنا الريفية المناهج الابتدائية والثانوية معاً » وجه هذا السؤال إلى غاندى وكان السائل تظهر على ملامحه الدهشة والتعجب .

وقد رد عليه غاندى قائلا « بكل تأكيد . إن التعليم الثانوى فى مدارس الهند يفرض على التلاميذ الفقراء باللغة الإنجليزية لمدة سبع سنوات ، فى حين أنهم يمكن أن يستوعبوا مناهج التعليم الثانوى فى سنتين إذا استخدمت اللغة القومية بدلا من الإنكليزية فى التدريس . فإذا وطدنا العزم على أن نحرر أطفالنا من هذا الكابوس الجاثم على عقولهم نتيجة تعليمهم باللغة الأجنبية ، وإذا كانت وسيلتنا التربوية هى تعليمهم كيف يستخدمون أيديهم وأرجلهم بصورة نافعة فى الحياة ، فإن العقبة الكؤود فى التعليم تكون قد ذُلّلت . يمكننا أن نضحى دون إلزام بكل الأموال التى تجمع من الضرائب التى تفرض على الخمور ، لكن عندما نعقد النية على أن نضحى بهذه الضرائب فانه ينبغى علينا أن نفكر فى الطرق والوسائل التعليمية التى لا تكلفنا كثيراً . ولنبدأ بتنفيذ هذه الخطوة الكبيرة » .

١٥ ــ التعليم الذى يعتمد فى نفقاته على نفسه :

كتب الدكتور لاكشيمباتى :

« لقد رأيت بعض المنظمات التى يتولى الإشراف عليها رجال الإرساليات

ووجدت أن المدارس تعمل فقط فى الصباح ، أما فى المساء فإن التلاميذ يقضون وقتهم فى عمليات زراعية أو صناعات ريفية ويدفع لهم بعض الأجر تبعاً لكمية ونوع العمل الذى يقومون به . ومن ثم فإن هذه المنظمات «إلى حد كبير» تعتمد فى نفقاتها على نفسها وإن التلاميذ لا يحسون بخيبة أمل عندما يتركون المدرسة ، بل يكونون قد تعلموا كيف يقومون ببعض الأعمال التى تساعدهم على كسب معيشتهم على أقل تقدير . وقد لاحظت أن الجو الذى يحيط بهذه المدارس يختلف اختلافا بيناً عما يوجد فى المدارس التقليدية التى تشرف عليها الإدارة التعليمية . ففى مدارس الإرساليات يظهر على سيماء التلاميذ الصحة والسعادة نتيجة لإحساسهم بأنهم ينتجون بعض الأشياء النافعة وحتى من الناحية البدنية فإنهم أسعد حالا بكثير من تلاميذ المدارس التقليدية . ومدارس الإرساليات هذه تغلق أبوابها فى أوقات قصيرة محدودة أثناء الدورات الزراعية والتى تحتاج فيها إلى جميع جهود التلاميذ للخدمة الميدانية فى الحقول . هذا فى الريف ، أما فى المدن فإن تلاميذ مدارس الإرساليات لديهم من المهارة والكفاية ما يمكنهم من الحصول على بعض الأعمال المتصلة بالتجارة والمهن الأخرى ؛ وهكذا فعن طريق التدريب المهنى للتلاميذ فإنهم يجدون مجالا متسعاً لأعمال كثيرة سواء فى الريف أو المدن . وتزود هذه المدارس التلاميذ فى بعض الأحايين بوجبة غذائية واحدة فى اليوم وخاصة لهؤلاء الذين يحتاجون إليها أو من الذين يرغبون فى تناول الطعام ، على أن يكون تقديم الغذاء فى الفسحة المخصص لها نصف ساعة يومياً فى الصباح. وكان من نتيجة ذلك ، أن أصبح التلاميذ الفقراء يندفعون إلى الذهاب للمدرسة وهم يشعرون بالسعادة . ومن ناحية أخرى فإن أولياء أمورهم يحثونهم على أن يواظبوا على ذهابهم إلى مدارس الإرساليات » .

« فإذا كان هذا المشروع الخاص بتدريس نصف الوقت يطبق فى مدارسنا ، معنى ذلك أنه يمكننا استغلال خدمات المعلمين فى برامج تثقيف الكبار فى القرى دون أن ندفع لهم أجراً إضافياً . ولا شك فى أن مرافق المدرسة

وإمكانياتها يمكن أن تستغل لتنفيذ البرامج . لقد قابلت وزير التربية والتعليم فى «مدراس» وقدمت إليه مذكرة وضحت فيها الأسباب التى أدت إلى انحدار صحة النشء فى الوقت الحاضر وخاصة أثناء الفترات التى يقضيها التلاميذ فى المدرسة . ولذا أقترح أن تعمل المدارس والكليات فى الفترة الصباحية فقط ما بين الساعة السادسة والحادية عشرة . فالدراسة لمدة أربع ساعات فى المدرسة ينبغى أن تكون كافية تماماً ، أما الفترة المسائية فينبغى أن تخصص لنواحى النشاط البدنى وتنمية الجسم . وقد يستغل بعض التلاميذ هذه الفترة للعمل لكسب قوتهم ، وقد يستغلها البعض الآخر فى مساعدة أولياء أمورهم فى أعمالهم . وهكذا يتضح أنه عن طريق مثل هذا الاتجاه فى الخطة التعليمية، سوف يكون لدى التلاميذ الوقت المتسع ليتصلوا اتصالا مباشراً بآبائهم ، ويعد هذا الاتصال بالغ الأهمية فى القرية حيث أن الطفل يعمل مع أبيه ويحترف المهنة التى تتلاءم مع استعداداته الوراثية » .

« فإذا أخذنا فى الحسبان أن بناء الجسم هو بناء الأمة ، فإن التعديلات المقترحة ولو أنها تلوح ثورية ، فإنها تتلاءم وتتجاوب مع تقاليد الهند ومناخها ، وسوف تقابل هذه التعديلات بكل ارتياح من الشعب » .

أما اقتراح الدكتور لاكشميباتى بأن نحدد ساعات الدراسة بفترة الصباح ، فإنى لا أود أن أتكلم عنه كثيراً أو أنبه أذهان المسئولين إلى أهميته . أما بخصوص المنظمات التى تعتمد كثيراً أو قليلا فى نفقاتها على نفسها ، فإنه لن يكون فى وسعها القيام بغير ذلك إذا شاءت أن تساهم بالكثير أو القليل فى تنشئة التلاميذ نشأة طيبة . ورغم كل هذا ، فإن إقتراحى يبدو أنه قد أذهل بعض المربين الذين لا يعرفون حلولا أخرى يمكن أن يقترحوها . وقد تخيلوا أن الفكرة التعليمية التى تهدف إلى جعل التعليم يسد نفقاته بنفسه تجرد التربية من كل قيمها كما أنهم أحسوا بأن اقتراحى هذا يشتم منه رائحة الارتزاق والاستجداء .

ومجرد أن يتوفر لمدارسنا المعلمون الأكفاء سوف يتعلم أطفالنا كيف يحترمون العمل وينظرون إليه كجزء مكمل ووسيلة من وسائل تنمية أذهانهم ، كما يحسون بأن دافع الوطنية يحتم عليهم أن يدفعوا تكاليف تدريبهم عن طريق العمل . وبالاختصار فإن المحور الذى يرتكز عليه اقتراحى هذا هو أن الصناعات اليدوية ينبغى أن تعلم للتلاميذ ، وهذا التعليم لا يستهدف فقط الإنتاج بل أيضاً يساعد على نمو الأذهان . وطبيعى إذا أخذت الدولة على عاتقها تعليم الأطفال ما بين سن السابعة والأربعة عشرة ، ودربت أجسامهم. وعقولهم على العمل المنتج ، فإننا يمكننا إتهام مدارس التعليم العام بعدم الأمانة والمدرسين بالغباء إذ لم تعتمد هذه المدارس فى الإنفاق على نفسها .

ولنفرض أن البنت أو الولد فى المدرسة يعمل باهتمام وحماس ، ليس على أنه آلة بل كوحدة ذهنية فى إنتاج مشترك تحت إشراف أحد الخبراء ، فإنه يمكن فى هذه الحالة أن يقدر المكسب الذى يعود عليه من هذا الإنتاج التعاونى (بآنا)[1] واحدة فى الساعة بعد السنة الأولى من الدراسة. وهذا يعنى أنه بعد ستة وعشرين يوماً يؤدى الطفل فيها أعمالا إنتاجية لمدة أربع ساعات فى اليوم ، فإنه يحصل على ستة روبيات وثمانية آنات فى الشهر الواحد . أما السؤال الذى يتبادر إلى أذهاننا الآن هو مدى إمكان حصول الملايين من أطفالنا على مثل هذا العمل المربح . وقد يحكم على أذهاننا بالإفلاس إذا لم توجه حيوية الأطفال توجيهاً صناعياً ملائماً يحصل الطفل عن طريقة بعد دراسة سنة واحدة على أجر قدره (آنا) واحدة فى الساعة . وأعلم أنه فى الوقت الحاضر يكسب القروى فى الهند أكثر من (آنا) واحدة فى الساعة . ولا يخفى علينا أن انخفاض الأجور فى القرى إلى هذا الحد يرجع إلى عدم تكافؤ الفرص فى العمل بين أهل المدينة

---

(١) (الآنا) عملة هندية قيمتها $\frac{1}{16}$ من الروبية أى ما يساوى ٤ مليمات تقريبا . المترجم

والقرية . ومن المحتمل أن يرجع ذلك أيضاً إلى تواطؤ بعض الهنود مع الإنجليز في استغلال القرى الهندية .

١٦ – مواصلة الأحاديث عن التعليم الذى يعتمد فى نفقاته على نفسه :

رغماً من ضعف صحة المهاتما غاندى وحاجته إلى الراحة التامة إلا أنه أبدى استعداده لمناقشة النظرية التى يدعو إليها فى جعل التعليم يعتمد فى نفقاته على نفسه مع أى فرد قد فكر ملياً فى هذا الموضوع ، وحرص على الإسهام فى نجاح هذه النظرية الجديدة. ونظراً لضعف صحته فقد كانت المناقشات قليلة ومختصرة ، لكن بين لحظة وأخرى كانت هناك أفكار عميقة تنبعث منه كلما تحدث ، واقتراحات جديدة يدلى بها كلما تناقش . وكانت هذه الأفكار والإقتراحات تلقى ضوءاً ساطعاً على الموضوع الذى يتناوله بالدراسة . وفى إحدى اجتماعاته أنذر هؤلاء الذين فرضوا بأن فكرة التعليم الذى يعتمد فى نفقاته على نفسه قد انبعثت من الشعور بضرورة مقاطعة الإنجليز مقاطعة كلية وبأسرع وقت ممكن – حيث قال « كلا الاتجاهين لابد من أتباعهما ، عليك أولا أن تؤمن بأن المقاطعة الكلية للإنجليز ينبغى أن تحقق سواء فرضت الضرائب أم لا ، ووجد التعليم أم لم يوجد . ثم عليك ثانياً أن تؤمن بوجوب الاهتمام بحاجات القرى الهندية والعقبات الخاصة بالتعليم التى تقف حجر عثرة فى سبيل تحقيقه وتدعيمه. بمعنى أن تعليمنا للريفى ينبغى أن يوجه توجيهاً ملائماً يعتمد فيه على نفسه من حيث النفقات ، هذا إذا أردنا أن يكون التعليم إلزامياً لكل قروى فى الهند .

وتحدث أحد المربين الذى قاد المناقشة قائلا « أما من ناحيتى فإنى أومن إيماناً جازماً بأن المقاطعة الكلية للإنجليز هى الهدف الذى ينبغى أن نحققه ، بل إنى أعتبرها التعليم الأكبر. ولذا ، ينبغى أن أضحى بالتعليم فى سبيل إنجاح سياسة المقاطعة . على أيه حال فإنى لم أومن بعد بأن التعليم يمكن أن يعتمد فى نفقاته على نفسه » .

ورد غاندى قائلا « وكل ما أطلبه منكم هو أن تقتنعوا أولا ، أما الطرق والوسائل الواجب اتباعها فإنها ستتضح عندما تشرعون فى العمل . وأنا فى سنى المتأخرة هذه أحس بالأسى يملأ قلبي لأن الحقائق بدأت تتضح أمام عينى بعد نوم طال أمده ، ولولا سنى المتأخرة لأجريت هذه التجربة بنفسى . وعلى الرغم من ذلك فإنى سوف أبذل قصارى جهدى بإذن الله تعالى لأثبت للملأ أن التعليم يمكن أن يعتمد فى نفقاته على نفسه . وعلى كل فإنى لم أضيع وقتى سدى ، بل قضيته فى أعمال كثيرة أخرى لا تقل أهمية عن هذا الميدان ، وأخيراً وجدت أن مكوثى فى قرية سيجاون قد زادنى اقتناعاً بالمبادئ التعليمية التى أدعو إليها . وحتى فى وقتنا هذا فإننا نركز اهتمامنا على حشو عقول الأطفال بجميع أنواع المعلومات دون أن نفكر فى توجيههم وتنميتهم ذهنياً . دعونا الآن نصيح بأعلى أصواتنا ونؤكد وجوب تعليم الطفل تعليما ملائماً عن طريق العمل اليدوى ، وليس كنشاط جانبى ، بل كوسيلة أساسية للتدريب الذهنى » .

استطرد غاندى قائلا ، « إنى بكل هذا عليم ، ولكنى قد أتساءل عن أسباب حرصنا على وجوب جعل المدرسة تعتمد فى نفقاتها على نفسها . أجل ، « هذا هو المعيار الذى نقيس به قيمة المدرسة وأهميتها . إن الطفل عند ما يبلغ سن الأربعة عشرة ، أى بعد أن ينتهى من دراسته لمدة سبع سنوات فى المدرسة ، ينبغى أن يتخرج وهو يعتمد على نفسه فى كسب قوته . حتى الآن فإننا نشاهد جلياً أن أبناء الفقراء يقدمون دون تردد على مد يد المساعدة إلى أولياء أمورهم — ويشعرون داخل نفوسهم بالمسئولية الملقاة على عاتقهم . وقد يسألون أنفسهم أيضاً : ماذا سيأكل أبى وأمى ؟ وماذا سيقدمان فى الغداء إن لم أسهم أيضاً فى العمل معهما ؟ هذا هو تعليم فى حد ذاته . من هنا نجد أن الدولة مسئولة عن الطفل عندما يبلغ سبع سنوات وأيضاً عندما يرجع ثانية إلى أسرته بعد قضاء مدة الدراسة ليعتمد بعدها على نفسه فى كسب العيش . فى هذه الحالة ، فإن

الواجب علينا أن نزود الطفل بالتعليم المناسب ، وهذا من شأنه أن يقضى على البطالة . علينا أن ندرب الأطفال على حرفة ما . وحول هذه الحرفة سوف يمكننا أن ندرب عقله ، وجسمه ، وكتابته ، وإحساسه الجمالى وما إلى غير ذلك — وهكذا فإنه سوف يصبح حاذقاً للحرفة التى يكسب منها عيشه » .

« لنفرض جدلا بأن الطفل قد تزود بالناحية الفنية والعملية فى صناعة الغزل والنسيج فهل تأخذ هذه الحرفة كل وقته أثناء السبع سنوات ليحذقها ؟ »

« نعم ، ينبغى أن يحذقها تماماً ، هذا إذا لم يتدرب عليها بطريقة آلية . لماذا تخصص سنوات عديدة لدراسة التاريخ أو لدراسة اللغة ؟ هل الحرفة أقل أهمية من المواد المدرسية التى نوليها إلى وقتنا هذا أهمية مفتعلة غير طبيعية ؟ »

« وكما أنك تفكر أساساً فى عمليات الغزل والنسيج ، فإنك دون شك تفكر فى جعل هذه المدارس للنسيج . وقد لا يكون لدى الطفل استعداد فى تعلم النسيج ، بل قد يكون لديه استعداد فى تعلم حرفة أخرى »

« هذا صحيح ، ولذا فإننا سوف نعلمه حرفة أخرى . ولكن ينبغى أن نعلم بأن المدرسة الواحدة لن تعلم حرفاً كثيرة . إن الفكرة الأساسية من وراء ذلك هى أنه ينبغى علينا أن نخصص مدرساً واحداً لخمسة وعشرين طفلا . ويمكنك أن توفر للمدارس فصولا كثيرة طالما وجد لديك عدد كاف من المعلمين . ثم عليك أن تجعل كل مدرسة منها تتخصص فى حرفة معينة — النجارة — الحدادة — الدباغة — الأحذية . كل ما هناك أنه ينبغى عليك أن تدرك الحقيقة وهى أنك تنمى عقل الطفل عن طريق هذه الصناعات . وفى نفس الوقت أود أن ألفت النظر إلى أنه يجب أن نترك التركيز على المدينة ونركز الجهود على القرى التى هى بحر خضم ، وما المدينة إلا قطرة منه . ولذا ، فإنه لا يمكننا فى الوقت الحاضر إدخال مادة دراسية مثل صناعة الطوب فى مدرسة القرية . فإذا كان

من الضروری أن یصبح البعض مهندسین مدنیین والبعض الآخر متخصصین فی المیکانیکا ، فإننا نوجههم بعد مضی السبع سنوات فی التعلیم الابتدائی إلی کلیات خاصة یدرسون فیها مواداً أکثر عمقاً وتخصصاً »

ثم استطرد غاندی قائلا « دعونی أرکز الضوء علی حقیقة أخری، وهی أن تفکیرنا فی الصناعات الریفیة لا یتعدی أن یکون تفکیراً سطحیا — وقد یکون مرجع ذلك هو أننا فصلنا التدرب العلمی عن التدرب المهنی . لقد کانت النظرة إلی العمل الیدوی کلها احتقار وازدراء ، ونتیجة لظروفنا التعسة أصبحنا نضع فئة الغزالین والنساجین والنجارین وصناع الأحذیة فی مستوی الفئات المنحطة ، أی فئة الصعالیك . إننا لا نعلم الأسباب التی أدت إلی وجود هذا النظام الفاسد الذی یعتبر الحرف من الأشیاء المنحطة ، ولا نعتبرها حرفاً تتطلب مهارات مهنیة . ولو نظر إلی الحرف علی أن لها طابعاً مستقلا یشغف به الدراس، لأصبح لدینا الآن الکثیر من المخترعین العظماء من بین صناعنا المهرة . ولا شك أن دولاب الغزل مهد لاکتشاف القوی المائیة وغیرها من الأشیاء التی جعلت مصانع النسیج تستغنی عن آلاف العمال . إن هذه الحادثة، من وجهة نظری، کلها بشاعة وخسة . وبعد أن نرکز اهتمامنا علی النهوض بالقری فسوف یتضح أن اکتساب المهارات فی الصناعات الریفیة یعین القری الهندیة علی سد حاجاتها بصورة عامة . »

المدارس التی تعتمد فی نفقاتها علی نفسها

« إن العامل الرئیسی الذی أدی إلی تدهور حالتنا الاقتصادیة إلی ما هو علیه الآن هو تزاید السکان علی مصادر الثروة الطبیعیة فی الهند . وعلی سبیل المثال ، فإننا لن نجد جزءاً من الأراضی الهندیة لم یستغل بعد ، ومن ثم فإننا نتألم من وجود مقاطعات وعواصم کثیرة . وإنی أری أن حق استغلال مصادر الثروة الطبیعیة فی الهند یجب أن یقتصر کلیة علی أولئك الذین تدربوا تدریباً

كافياً مفيداً . فإذا كان هناك مائة شخص يزرعون فى مائة قطعة أرض صغيرة متفرقة يتغذى عليها خمسون فرداً ، وتجمعت هذه القطع الصغيرة وقام عشرون شخصاً فقط بزراعتها منهم من هو خبير بالسماد ، وخبير بتلقيح النبات ، ومهندس رى ، فإن نفس هذه القطعة من الأرض يمكن أن تغذى مائة شخص . ونظراً للاختراعات الكثيرة التى تزيد من إنتاج العامل دون أن تؤثر فى حياته المألوفة أو تقلل من حريته ، فإن هناك دون شك حاجة قد ظهرت فى الأفق تمنع الكثير من العمال من وجود عمل لهم . أما أن يحال الذين يبلغون الخمسين من العمر على المعاش فذلك يعد حلا غير ملائم ، لأن قدرات الإنسان العادية من ناحية العقل والجسم لا تتأثر كثيراً عندما يبلغ الإنسان هذا السن . إن الطريقة الصحيحة هى منع الناس من دخول الحياة قبل أن يستعدوا تماماً لها » .

« حقاً ، إذا نظرنا بصورة أكثر عمقاً واتساعاً لوجدنا أن السبب الرئيسى لتدهور الحياة الاقتصادية فى الهند هو أن العمال عندما يدخلون معترك الحياة يدخلونها وهم فى سن مبكرة . إن النجار يجعل من ابنه صبياً له فى سن مبكرة حتى إننا نجد أن ابنه يصل إلى أعلى مستوى من الكسب فى سن الثانية عشرة ثم بعد ذلك يتزوج ويبدأ فى إنشاء محل خاص به بعد فترة وجيزة . وطبيعى أنه لن يتأثر كثيراً فى حرفته بالطرق الحديثة فى الإنتاج والتسويق . إن العقل الذى لم ينضج بعد ويدخل ميدان التلمذة الصناعية فإنه يصبح متخلفاً متحجراً . وطبيعى أن مثل هذا العقل لن يدرك الأهمية الاقتصادية للعمل . ولذا ، فقد أمكن لأى فرد أن يستغل هذا العامل الذى حكم عليه أن يعيش فقيراً كادحاً فى عالم ضيق عمل على تحديد ميوله واهتماماته . وكان من نتيجة ذلك أن قاست الهند من الضيق الذى يفرض عليها ، من القناعة ، من الاعتقاد بالقضاء والقدر ، من نظام التفرقة العنصرية ، من المخدرات والخمر . لقد فزعت كثيراً عندما قمت بزيارة إلى مزرعة سيلان وشاهدت نظام استغلال الأطفال فى العمل .

ورغم وجود مدارس هناك فإن أولياء الأمور يتجهون نحو تشغيل أطفالهم . أما الجيل القديم من أولياء الأمور فإنه يحاول دائماً أن يلقى بأعباء المسئوليات على الصغار . إن وظيفة الدولة هي الإشراف على نواحي النشاط لتجيز منها ما يعود بالنفع على الأفراد ، وتضع حداً لما يعود بالضرر منها على المجتمع . وحتى فى بلد مثل سيلان الذى لا يوجد بها العدد الكافى من السكان لاستغلال المصادر الطبيعية فإنه من الصعب تبرير استغلال الأطفال فى الأعمال . إن نفس هذه المشكلة توجد فى الهند حيث أن تشغيل الأطفال يعنى البطالة لعدد كبير من الكبار» .

« ينبغى علينا ألا نخدع أنفسنا ونعتقد بأن المصانع المنشأة بالمدارس التى تعتمد على نفسها من حيث النفقات والتى تنتج وتسوق المنتوجات سوف تقوم بكل التربية المطلوبة . فى الواقع أن مصانع هذه المدارس لن تكون شيئاً أكثر من إباحة تشغيل الأطفال فى سن مبكرة . ولنأخذ مثلا ليوضح قولنا هذا ، فإذا اختارت إحدى المدارس الغزل ليكون الحرفة التى يتدرب التلاميذ عليها فإن إدارة العجلة تصبح عملاأتوماتيكياً لابد منه . ولا يمكننى أن أوافق محرر جريدة الهاريجان على أن الحساب يمكن أن يدرس عن طريق عد اللفات المطلوبة من الغزل لصناعة قطعة من النسيج ، أو أن أعلم العلوم والجغرافيا للأطفال عن طريق ملاحظة نمو وتحسين سلالات القطن . قد تثير هذه المعلومات والملاحظات عقل الطفل إلى وقت محدود ، ولكن إذا أعيدت يومياً لعدة سنوات ، فإنها تفقد العقل حساسيته وتجعله مشتتاً غير مركز . وقد أنقذ الإنسان أثناء عملية النشوء والارتقاء ، وليس مرجع ذلك لأنه اكتسب استعدادات معينة ، بل لكونه قادراً على استيعاب ثقافة عامة تجعله أكثر مقدرة على مواجهة التغيرات الدائمة لحقائق الحياة المعقدة . إن تدريب العينين والأذنين واليدين ضرورة لا بد منها ، والعمل اليدوى ينبغى أن يكون إجبارياً فى جميع المدارس ، ولكن علينا أن نأخذ فى الحسبان أن ما نطلق عليه تدريب اليدين إنما هو تدريب للعقل . فإذا وضعت

المدرسة تعليم الأطفال هدفاً لها فينبغى عليها فى هذه الحالة ألا تتبع الأفكار التى تدفعها إلى إنتاج بضائع معينة لغرض بيعها . بل يجب على المدرسة أن توفر للتلاميذ أنواعاً مختلفة من الخامات الطبيعية ولعدد الآلات ليتمكنوا من عمل التجارب بصرف النظر عما يتلقونه منها . إن التآلف أثناء هذه العمليات التعليمية شىء لابد من حدوثه ، وإن الدراسات المستفيضة المدعمة بالإحصائيات التى قامت بنشرها جريدة هاريجان توضح أنه حتى إذا كانت المدرسة قد تخصصت فى تدريس مهنة واحدة للتلاميذ فى السنوات الأخيرة للمرحلة الأولى . فإن التالف أحياناً من الخامات والأدوات المستعملة يكون كثيراً . إن المدرسة المهنية ، مثل كليه العلوم ، تعد مكاناً للتجريب قد ينشأ عنه إتلاف للخامات الطبيعية . وبما أن الهند لديها ثروة طبيعية محدودة فإن إنشاء مثل هذه الكليات والمدارس يجب أن يكون تدريجياً ، بل وينبغى أيضاً أن تنشأ فى أماكن هامة فى الولايات المختلفة . ولن تعد تبذير فى أموال الدولة إذا اختير الأطفال من مكان ما ليذهبوا إلى مكان آخر لدراسة الصباغة ، ولكن ينبغى إدراك الحقيقة وهى أن كثرة المدارس المهنية سوف يؤدى إلى تبديد فى الأموال » .

« هناك نوع من التبديد غالباً ما يكون غير معترف به . لنفرض أن هناك قطناً بمبلغ جنيه واحد ، فإن الصانع الماهر الذى يستخدم آلة حديثة يمكنه أن ينسج كساءات تكفى لأربعة أشخاص من هذه الكمية من القطن ، فى الوقت نفسه نجد أن الصانع الذى ليست لديه المهارة اللازمة لن يمكنه نسج كساء لأكثر من شخصين بهذه الكمية . وهذا يعنى أنه إذا أردنا أن نكسو الأهالى الذين يعيشون فى الهند . فإن هذا يكلفنا زيادة رقعة الأرض المنزرعة قطناً إلى الضعف . أى أنه فى حالة عدم وجود الصانع الماهر فى النسيج فإن هذا يكلف الهند زراعة مساحة شاسعة من القطن . ولكن إذا كان لدينا صناع مهرة فإن المساحة التى تخصص للقطن يمكن أن تزرع منها ذرة أيضاً — أى أن الصانع الماهر لن يتلف كمية كبيرة من القطن مثل الصانع غير الماهر كما أسلفنا » .

« هناك عامل ثالث ينبغي أن نعيه جيداً يتعلق بالتبديد الذى نتحدث عنه . قيل لنا إن أطفال المدرسة يمكنهم صنع منتوجات متقنة . فمنذ مدة وجيزة رأيت طالباً متخرجاً فى إحدى المدارس الصناعية يصنع لعباً من الخشب للأطفال ، ولاحظت أن الخشب والمسامير وحتى الأدوات التى يستعملها مستوردة من الخارج . ومثل هذه الصناعات تخلق سوقاً للبضائع الأجنبية لم تكن موجودة من قبل . وقد يجادل بعضنا البعض فى أنه يمكننا فى الهند زراعة الأشجار بكثرة لتكون مصدراً لمثل هذه الصناعات . لكن الهند ليست مثل أمريكا من حيث الأراضى الزائدة لاستغلالها فى زراعة الأشجار التى يصنع منها اللعب الخشبة . لذا ، ينبغى أن نكون حذرين وألا نواصل تشجيع استغلال مصادر الثروة الطبيعية ورأس المال فى إنتاج سلع غير ضرورية للاقتصاد الهندى » .

« إن المدرسة أو الجامعة ينبغى أن تكون مكاناً تعيش فيه العقول الناشئة فى عالم القيم بدلا من المادة والأسعار . فإذا حلت الصناعة والتسويق والكسب السريع محل المثل العليا أثناء نمو الفرد كان من نتيجة ذلك وقوف تطوره الخلقى عند حد معين ، بل وقد يبالغ الفرد فى الانحراف — وقد ينعكس ذلك على اكتواء العالم بنار الفقر رغم توفير الإمكانيات الضرورية للحياة . ومن الأهمية بمكان ذكر الحقيقة بأن شرى راماكريشنا لا يربط التدريب المهنى بأى قيم معترف بها » .

« أما القول بأنه من الممكن ضغط المدة المخصصة لدراسة التلميذ وجعلها سنتين بدلا من السبع سنوات فى المرحلة الأولى من التعليم يعتبر قولا خياليا لا يخلو من العجب . إن عقل التلميذ ليس بالإناء الفارغ ينتظر ملأه . فالتلميذ لا يمكنه ، وينبغى ألا يمكنه فى سن الثامنة دراسة مالا يقدر على دراسته فى سن السادسة عشرة . واللغة الإنجليزية ليست هى سبب التأخير الدراسى للتلميذ ولم تعط بقدر أكثر مما ينبغى كما يتخيل الكثيرون . ولنعلم جميعاً أن كتابة الموضوعات عملية تدريبية للعقل والعاطفة ، ومثل هذا التدريب يجب أن

يكون بطيئاً . وقد جاء التوزيع الآتى للوقت المخصص للمواد الدراسية فى منهج مدارس إنجلترا فى كتاب التعليم السنوى :

	عدد الساعات
اجتماعات ، تسجيلات ، توجيه دينى	٢½
لغة إنجليزية (يدخل فيها القراءة والكتابة وقواعد اللغة والإنشاء)	١٠
الحساب ومبادئ الرياضة	٥½
التاريخ والجغرافيا	٣
العلوم والفنون (يدخل فيها التعليم اليدوى)	٣
تربية بدنية وألعاب	٣½
	٢٧½

« فاذا استبعدنا فترة التوجيه الدينى والعلوم والفنون يتضح أن اللغة الإنجليزية يخصها نصف الوقت . ومن الطبيعى أن يركز على استعمال اللغة الإنجليزية فى بقية المواد الدراسية عندما تتعقد اللغة ويكمل إتقان الطفل لها ، وكلما أصبح ذهنه متألقاً آخذاً فى الاتساع . إن الوسائل التى يمكن إستعمالها لتنمية العقل قد تظهر من أول وهله بأنها وسائل غير منتجة أو غير فعاله أو غير سريعة ، لكن ينبغى أن نتذكر دائماً بأن الغرض من التعليم هو تنمية العقل وتدعيمه ، علاوة على جعل الفرد متكيفاً من الناحية النفسية بالحياة الاجتماعية كلما أمكن ذلك — ولنطلب من المدارس ألا تصنع لنا رجالا فقط بل تصنع أيضاً منتوجات»

«وبالإختصار فإنه من الخطورة الإقتصادية بمكان أن نتبنى سياسة قصيرة النظر ندعو فيها إلى سد حاجات المدارس فى الوقت الذى تسير الدولة فى طريق الإفلاس » .

هذا ما قاله أحد الأساتذة فى إحدى الجامعات ذات الشهرة العلمية فى الهند . ولم يشأ أن يوقع هذه المقالة صاحبها ، لكن الخطاب الذى أرفق بها كان موقعاً عليه . ومن ثم فإنى أجد نفسى مضطراً لعدم إفشاء اسم كاتب هذه المقالة . وعلى أيه حال ، فإن القارئ يهمه الموضوع وليس اسم كاتبه . إن هذه المقالة

عبارة عن موضوع حى لمجموعة من اللمحات الخارقة التى تبهر نظر الواحد منا .
ولم يحاول الكاتب أن يجشم نفسه مشقة فهم مشروعى هذا ، بل على العكس من ذلك فقد أدان نفسه عندما شبه الأطفال فى المدارس التى أدعو إلى إنشائها بالأطفال الذين يعيشون أنصاف عبيد فى المزارع الكبيرة بسيلان . وقد نسى أن الأطفال الموجودين فى هذه المزارع لا يعاملون معاملة التلاميذ ، وأن أعمالهم ليست جزءاً من تدريبهم . أما فى المدارس التى أدعو إليها فإن الأطفال يدرسون ما يتعلمه التلاميذ فى المرحلة الثانوية مع قليل من اللغة الإنجليزية وكثير من التدريب ، والموسيقى ، والرسم ، وبالطبع مع تعليمهم حرفة ما . لكن الإصرار على تسمية هذه المدارس بالمصانع لا يدل على شىء أكثر من رفض عنيد لتقدير الحقائق الثابتة . وهذا يشبه تماماً حالة رجل يقرأ أوصاف الإنسان ويصر على أنها أوصاف قرد لمجرد أنه لم ير حيواناً آخر غير القرد ، ولأن هناك صلة ما بين الإنسان والقرد . وقد يمكن للأستاذ الجامعى الذى كتب هذه المقالة أن يكون أكثر أمانة إذا ما حذر الرأى العام من قبل لكل ما أدعو إليه من اقتراحات . فى هذه الحالة فإن هذا التحذير لن يكون له صدى يذكر لأنى أوضحته بنفسى من قبل .

وأقر بأن اقتراحاتى جديدة ، ولكن الجدة ليست جريمة . بل وأكثر من ذلك فإنى أعترف بأنه ليست وراء هذه الاقتراحات خبرات كثيرة . لكن خبرات زملائى والخبرات التى مرت بى طوال حياتى شجعتنى على القول بأن هذا المشروع إذا نفذ بأمانة وإخلاص فسوف يصيبه النجاح . ولن تخسر الدولة شيئاً إذا قامت بهذه التجربة وأثبتت الحقائق فشلها — لكن المكسب سيكون كبيراً إذا نجحت هذه التجربة ولو جزئياً . وإنى لا أجد منفذاً آخر فى جعل التعليم الابتدائى مجانياً وإجبارياً وله أثره النافع إلا عن هذا الطريق . كلنا نقر بأن التعليم الابتدائى فى الهند غش وخداع ووهم .

أما الإحصاءات التى عرضها شرى نارهارى باريخ ليدعم بها المشروع إلى

الحد الذى تحتمله الأرقام ، لم تكن قاطعة تماماً بل إنها مشجعة . على أية حال ، فإن هذه الإحصاءات جمعت بطريقة جيدة وتفيد المتحمس فى عمله . إن السبع سنوات لم تكن كافية للمشروع الذى أدعو إليه، وقد نكون فى حاجة إلى وقت أكثر من ذلك للوصول إلى المستوى الذهنى الذى أهدف إليه . فالدولة لن تخسر شيئاً البتة عندما تزيد المدة المقررة للدراسة . وما أقصد توجيه الأذهان إليه هو أن الأجزاء التى تكمل المشروع هى :

١ ــ عندما ينظر إلى مجموعة من المهن أو إحداها بصورة كلية فى التعليم ، فى هذه الحالة تعتبر المهنة من أنجع الوسائل وأحسن الطرق التى تؤدى إلى تنمية الولد أو البنت من جميع النواحى . لذا فإن المناهج جميعها ينبغى أن تنسج حول التدريب المهنى .

٢ ــ هكذا ينظر إلى التعليم الابتدائى ككل ؛ ولو أنه فى السنة الأولى أو الثانية قد لا يعتمد كلية على سياسة تحمل المدرسة نفقات التعليم بها، وهى التى أفضنا فى شرحها فى الصفحات السابقة .

أما الأسئلة التى وجهها أستاذ الجامعة بشأن احتمال إعطاء الحساب وبعض التدريبات الأخرى عن طريق المهن، فإنها تدل على أنه يتحدث دون خبرة ما . ولكنى عندما أتحدث إنما أعبر عن الخبرات التى تزودت بها . فى مزرعة تولستوى لم أجد صعوبة ما فى تنمية الأطفال من جميع النواحى ــ هؤلاء الأطفال الذين كنت مسئولا عنهم أثناء فترة التدريب . فالصفة البارزة فى البرنامج هى أن التدريب المهنى حدد له ثمانية ساعات ، وخصص للتدريس فى الكتب ساعة أو ساعتان على الأكثر . والمهن التى درب التلاميذ عليها إنحصرت فى : عمليات التنقيب ، إعداد الطعام ، التنظيف ، صناعة الأحذية ، نجارة بسيطة ، وأعمال الخدمة . وكانت أعمار التلاميذ ما بين السادسة والسابعة عشرة وقد تطورت هذه التجربة تطوراً كبيراً بعد تنفيذها فى مزرعة تولستوى بجنوب أفريقيا .

١٨ ــ عمل ، وليس تفكيرا تافهاً عقيما :

لقد أرسل إلى الدكتور ج . س آراندال نسخة من المقال الذى كتبه خصيصاً لمجلة الشرق الأسبوعية المصورة ألحق به الخطاب الآتى :

« إنك عبرت عن رغبة فى وجوب البدء من الآن فى جعل التعليم يسلك طريقاً واقعياً فى هذه الدولة بدلا من كونه سطحيا غير واقعى كما هو الحال منذ سنوات عديدة . وكأحد المسئولين عن التعليم فى الهند لأكثر من ثلاثين عاماً فإنى أرسل إليك المقال الذى ظهر فى مجلة الشرق الأسبوعية المصورة . وإنه من المحتمل أن تعبر هذه المقالة عن بعض الآراء التى تنادى بها . وأحس تماماً بوجوب وجود تخطيط عام للتعليم فى الهند ، ثم يقوم كل وزير على قدر استطاعته وإمكانياته بتنفيذ الجزء الخاص بالتخطيط الذى يرتبط بولايته . لقد كان هناك كثير من التفكير المستقل فى السنوات الماضية ، ولذا أشعر بأن الحاجة ماسة فى أن المبادئ السامية ينبغى أن نتجه إليها دون أدنى تأخير حتى يمكن أن يكون هناك رباط عام بيننا ومجهود مشترك يلتف حوله الشعب والحكومة على السواء » .

وإنى سأقتبس من هذه المقالة بعض الأجزاء الضرورية والهامة التى تتصل بموضوعنا هذا . بعد أن تناول الكاتب الموضوع الخاص بالمقدمة قال :

« ليس عندى مجال متسع فى هذا الوقت حتى أوصى بطبيعة المبادئ التى ينبغى أن يتضمنها التعليم الشعبى فى الهند . ولكن على الأقل فيما يتعلق بالبنين والبنات فى المدارس ، فإنى أتعشم بأننا سنعمل على إزالة هذا التمييز الفاصل تدريجياً بين المدرسة و الكلية ــ فإن الدراسة فى هذا التعليم يجب أن تكون مبنية على أساس العمل » .

« وعلى كل ، فإن هناك الكثير من الأفكار التى يمكن إثارتها وقد يكون لها قيمة كبيرة عندما تنمو وتزدهر أثناء « العمل » . وقد يمكننا أن نطبق ذلك على

العواطف والأحاسيس التى أهملت بدرجة الخطورة فى النظم التعليمية الحديثة . إن الهند تحتاج إلى عمال من شبابها قد تكونت صفاتهم ونمت قدراتهم أثناء التعليم ، وهذه الصفات تترجم طبيعياً إلى عمل ، إلى قوة عملية ، إلى خدمات . أى نعم ، فالهند فى حاجة ماسة إلى مواطنين من الشباب الذين يمكنهم القيام بما يلقى على أكتافهم من مسئوليات فى أى مجال من مجالات الحياة سواء دعتهم البيئة أو المجتمع إلى ذلك . إن كل مادة دراسية تكشف عن قانون ، عن نظام، عن فرص ما فى الحياة . ويجب ألا ينسى المعلمون هذا أبدا ، وخاصة منهم الذين يتعلقون كثيراً بما يطلق عليها « بالحقائق » . وينبغى أيضاً أن يتذكروا أن فى عالمنا الذهنى لا توجد حقائق بل اعتقادات . وقد صاغها سير أرثر أدينجتن فى قوله إن العلم قد خطا خطوات كبيرة فى الانتقال من اليقين إلى الشك . لذا فإن التعليم ينبغى أن يمهد للحقائق لتدخل فى عقول التلاميذ ، وتكون وسيلة قبل كل شىء فى تنمية الصفات الإنسانية التى تعتبر الأساس الأول فى كل من أفراد الشعب ».

« وعندما تنمو هذه الصفات فإن الرغبة فى « العمل » سوف تقوى وتشتد فى اتجاهات تتصل بالاعتماد على النفس والتضحية بها . وعن طريق ذلك سوف ينبعث فى الفرد الرغبة فى الاتباط على قدر الإمكان بالأرض ، بالأم الكبيرة ، ويتلقى التعاليم الزراعية حتى يصبح أكثر التصاقاً بها وتحملا لأعبائها . وقد يحس بالحاجة إليها والرغبة الصافية فى الاندماج فيها . حقاً إنى أعتبر بأنه لا يوجد طفل تبنته « أمنا الأرض » لا يمكنه أن يعيش مباشرة من خيراتها . ولذا فإنى أدعو إلى أن يكون جزءاً من العملية التعليمية هو اتصال الفرد إتصالا مباشراً بالأرض سواء أكان فى مؤسسات تعليمية ، فى المدينة ، أو القرية .

« وهكذا يجب ألا ندور فى عجلة التقاليد التعليمية التى جعلت من التعليم عملية عديمة النفع لا طائل من ورائها . وينبغى أيضاً أن نبدأ ، تحت الرعاية الحكيمة لوزراء التعليم فى الولايات الهندية ، فى وضع نظام واقعى للتعليم بعيداً

عن عمليات التلقين الآلية . لقد أصبحنا نعيش بين جدران السجون من جراء الاتجاهات التعليمية الجامدة التي لا تنتمي إلى عصرنا هذا . وإني أرحب من كل قلبي بدعوة غاندى فى جعل التعليم يعتمد فى نفقاته على نفسه . ولست متأكداً إذا كان فى استطاعتنا أم لا تحقيق ما أوصى به غاندى . وإنى موافق كلية على أن المواطن الشاب بعد أن يقضى سبع سنوات دراسية ينبغى أن يتخرج وهو « وحدة إنتاجية » . وأنا شخصياً أشعر بأن كل واحد منا ينبغى ، ولو جزئياً أثناء مرحلة التعليم ، أن يكون واعياً لقدرته على الابتكار . وذلك لأنى أومن بأن الإنسان جزء من الله ويملك من صفاته العليا القدرة على الابتكار — القدرة على العمل . فأى نفع للتعليم إن لم تصحو هذه القدرة من غفوتها ؟ حقاً إن التلقين وليس التعليم هو السبب إلى ما وصلنا إليه الآن من تدهور وتعاسة » .

« هناك عقل يوجد فى اليد كما أنه موجود فى الرأس ، ومنذ وقت طويل كان الذهن فى الرأس يعتبر الآلة التى تسيرنا كما شاءت . وكان الذهن أيضاً دكتاتوراً وطاغية . لكن الذهن فى ناموس الحياة الحديثة يعتبر من إحدى القدرات التى تعمل لخدمتنا . وعلينا أن نتعلم أساليب استغلال كل هذه القدرات لنحيا حياة بسيطة تقودنا إلى أن نكون أكثر ارتباطاً بالطبيعة الجميلة المحيطة بنا — كل هذا يساعدنا على أن نعمل بأيدينا ونتعيش عن طريق العمل اليدوى — كما هو الحال فى الفنان والصانع والزارع وما إلى ذلك . »

« وإنى موقن تماماً بأنه إذا كنت قد تعلمت عن طريق مثل هذا النوع من التربية لأصبحت الآن أكثر سعادة وأوفر إنتاجاً » .

وما كنت أقوله كرجل غير متخصص فى التعليم إلى رجل الشارع ، يقوله مستر أراندال كرجل تعليم إلى المربين الذين فى متناول أيديهم صهر الشباب فى بواتق التعليم . ولم أندهش مما حذرنا به مستر أراندال عندما تحدث عن التعليم الذى يعتمد فى نفقاته على نفسه ، هذا التعليم الذى أعتبره العقدة التى يصعب حلها . أما ما يؤسفنى حقاً هو أن كل ما رأيته خلال الحياة المظلمة فى السنوات

الأربعين الماضية بدأت أراه الآن واضحاً جلياً تحت ضغط الظروف .

تحدثت فى سنة ١٩٢٠ بكل قوة داعياً إلى مناهضة النظام التعليمى المتبع آنذاك . ورغماً من أن الوقت لم يتسع للتأثير على وزراء التربية والتعليم فى السبع ولايات الذين كانوا إخوة لى فى الكفاح الباهر من أجل تحرير الهند ، فإنى أشعر بدافع لا يمكننى مقاومته لأن أحكم على الاتجاه التعليمى فى الوقت الحاضر بأنه اتجاه خاطئ من جميع الوجوه . وكل الموضوعات التى جاهدت فى التعبير عنها فى مقالاتى المتكررة ودون أن يكون لها صدى كبيراً قد ألقت الكثير من الضوء على فلسفتى فى الحياة . وهكذا بدأت الحقيقة تنمو يومياً فى حياتى . لذلك فسوف أجازف وأسأل المربين فى الهند الذين يتميزون بالعقل الراجح والفهم المستنير ليدرسوا معى الاقتراحين اللذين سبق أن عرضتهما دون أن يسمحوا لأفكارهم الثابتة عن الاتجاه التعليمى فى الوقت الحاضر أن تقف حجر عثرة فى سبيل الانطلاق الحر للمنطق الذى يؤمنون به . وإنى ألح عليهم بألا يسمحوا لجهلى المطبق فى التربية ، من ناحيتها الفنية والتقليدية ، أن يكون باعثاً على تعصبهم ضد ما أتحدث وأكتب عنه . قيل أن الحكمة كثيراً ما تصدر من أفواه الأطفال . وقد يكون هذا القول صادراً من روح شاعرية ، لكن دون شك فى أن الحكمة تأتى فى بعض الأحايين من الأطفال . وكثيراً ما يتناول الخبراء هذه الحكمة ليضعوها فى شكل علمى . لذا فكل ما أبتغيه هو أن يختبر الأخصائيون اقتراحاتى فى التعليم حتى يتكشف لنا مدى صحتها . ويحسن بى أن أعيد كتابتها هنا ، ليس كما عبرت عنها فى المقالات السابقة ، بأسلوب مختصر طرأ لى التعبير عنه أثناء كتابتى هذه السطور :

١ — ينبغى أن تشمل مرحلة التعليم الابتدائى مرحلتى الإعدادى والثانوى . وتحدد المرحلة الابتدائية المقترحة بسبع سنوات أو أكثر تدرس فيها المواد المدرسية الموجودة فى منهج الإعدادى والثانوى على أن تحذف مادة اللغة الإنجليزية

ويضاف تدريب التلاميذ على إحدى المهن لتكون محوراً لصقل عقولهم فى جميع نواحى المعرفة .

٢ — وهذا النوع المقترح من التعليم يجب أن يعتمد فى نفقاته على نفسه . وهذا يعد الاختبار الحقيقى للكشف عن مدى صلاحية التعليم فى الهند .

١٩ — التعليم الابتدائى فى بومباى :

عندما تحدثت عن الموضوع الخاص بالتعليم الابتدائى إنما كنت أتحدث عن القرى لأنها تمثل الأغلبية الساحقة فى التوزيع الجغرافى للهند ، علاوة على أنه يسكنها عدد كبير من السكان . وعلى أية حال ، فعندما نتناول موضوع القرى بالدراسة العلمية معناه أننا أيضاً نعمل على حل مشكلات المدن . ولى صديق مهتم بموضوع التعليم الابتدائى بمدينة بومباى سجل المشكلة الآتية .

« إن مجلس الوزراء منشغل فى وقتنا هذا بموضوع تمويل التعليم الابتدائى . وتوجد هناك محاولات فى جعل التعليم الابتدائى يعتمد فى نفقاته على نفسه . لذا ، فإنه من الأصوب أن نمتحن هذا الرأى ونقف على كيف وإلى أى حد يمكن أن نطبق مثل هذه المحاولة فى مدينة مثل بومباى . فالميزانية السنوية لجمعية بومباى للتعليم تتراوح بين ٣٥ إلى ٣٦ « لك » (Lakhs)[1] روبية . وينبغى أن يزاد هذا المبلغ بمئات الألوف من الروبيات قبل أن نحقق نظام التعليم الإجبارى فى المرحلة الأولى . ففى الوقت الحاضر نجد أن أكثر من ٢٠ « لك » من الروبيات تصرف سنوياً لمرتبات المدرسين ، وفى الوقت نفسه فإن حوالى ٤ « لك » من الروبيات تصرف على إيجارات المدارس . هذا يعنى أنه يصرف على التلميذ من ٤٠ إلى ٥٠ روبية فى السنة تقريباً . إذن هل يمكن للتلميذ أن يكتسب هذا المبلغ أثناء تدريبه المهنى ؟ وإن لم يكن فى استطاعته ذلك فكيف يمكن للتعليم الابتدائى أن يعتمد فى نفقاته على نفسه ؟ » .

---

(١) اللك Lakhs كلمة هندية معناها مائة ألف . (المترجم) .

لا يخامرنى أدنى شك فى أن مدينة بومباى وتلاميذها يمكنهم أن يحققوا كسباً كبيراً إذا ما اتبعوا نوعاً من التعليم الابتدائى مبنياً على أساس المهن . فنى الوقت الحاضر ، نجد أن التلاميذ لا يستفيدون الكثير بعد انتهاء تعليمهم فى المدارس الابتدائية ، ومن نتيجة ذلك فإننا لا يمكننا إدراجهم فى كشف المواطنين الصالحين .

أما من ناحيتى فإنى لن أتردد لحظة فى الموافقة على أن يبنى التعليم الابتدائى فى المدن على أساس المهنة . ومن ثم فإن الدولة ستوفر من جراء ذلك الجزء الأكبر ، إن لم يكن الكل ، من المبلغ المخصص للتعليم الابتدائى فى بومباى والذى يبلغ ٣٥ « لك » من الروبيات . فإذا حددنا ٤٠ روبية لتصرف سنوياً على تلميذ المرحلة الأولى بمدينة بومباى ، فهذا يعنى أن التلاميذ الذين يستفيدون من هذا التعليم يبلغ عددهم ٨٧,٥٠٠ تلميذ ، يحصلون على دراستهم من ميزانية التعليم التى تخصصها جمعية بومباى . وإذا فرضنا أن عدد السكان فى بومباى يبلغ ميلوناً فيقدر عدد الأطفال فى سن التعليم بحوالى ١٥٠,٠٠٠ تلميذ ، أى أن ٦٢,٠٠٠ من التلاميذ الذين فى سن الإلزام بمدينة بومباى لا يحصلون على التعليم الابتدائى . أما إذا استبعدنا من هؤلاء ٦,٠٠٠ تلميذ يحصلون على تعليمهم عن طريق الدروس الخصوصية فى منازلهم ، فيقدر عدد المتخلفين عن التعليم الابتدائى بحوالى ٦٢,٠٠٠ تلميذ . تبعاً لميزانية مصروفات التعليم الابتدائى فى الوقت الحاضر ، فإن المبلغ المطلوب يقدر بـ ٢٢,٤٠٠,٠٠٠ روبية . وإنى اعتقد أن هذا المبلغ لن يمكننا الحصول عليه سنوياً إلى يوم الحشر .

إنى أومن إيماناً عميقاً بمبدأ التعليم الابتدائى الإجبارى وبدون مصروفات فى الهند . وأعتقد أيضاً بأننا لن نحقق ذلك إلا عن طريق تعليم التلاميذ مهنة نافعة نستخدمها كوسيلة لتهذيب ملكاتهم العقلية والجسمية والروحية . وينبغى ألا نترك أية فرصة لإنسان ما لينظر إلى هذه التقديرات الاقتصادية الخاصة بالتعليم نظرة ينبعث منها الاحتقار ، ويدعى أن هذا النوع من التقديرات لا

يصح أن يكون لها مكاناً فى مجتمعنا . نعم ، أحب أن أؤكد بأنه ليس هناك شىء حقير بالنسبة للتقديرات الإقتصادية فى التعليم . إن الاقتصاديات الحقيقية لا تزاحم أو حتى تعارض القيم الأخلاقية العليا . وهذه القيم الأخلاقية لن تستحق أن نؤمن بها إلا إذا كانت فى نفس الوقت تعتمد على الاقتصاد الناجح. إن الاقتصاد الذى يبنى على عبادة المال ، والذى يعنى أن يجمع القوى ثروة على حساب الضعيف ، يصبح دون شك اقتصاداً مزيفاً لا يُحصد من ورائه إلا الشقاء والحزن . إنه اقتصاد يؤدى بنا إلى الموت . ومن ناحية أخرى فإن الاقتصاد الحقيقى يقف جنباً إلى جنب مع العدل الاجتماعى ، وهو ينمى فى نفس الوقت الصفات الطيبة فى نفوس الجميع على حد سواء حتى الضعاف منهم . وهو أيضاً شىء لا بد منه ليحيا الإنسان حياة كريمة . لذا ، فإنى أدعو إلى أن تجعل مدينة بومباى من نفسها مثلا نبيلا تحتذى الدولة به ، وذلك بتعليم تلاميذها صناعات نافعة حتى تجعل التعليم الابتدائى ينفق على نفسه . لنفرض أن تلميذاً يعمل فى مهنة ما أربع ساعات فى اليوم ، فإذا جمعنا عدد الساعات التى يعملها فى الشهر نجدها تصل إلى ٢٥ ساعة والمكافأة التى تعطى له فى الساعة هى (بايس) — أى مليم واحد — ، فيكون ما تحصله المدرسة من عمل التلميذ فى الشهر حوالى ٣,٢ روبية . ولا شك أن التدريب المهنى سوف يجعل عقل التلميذ أكثر نشاطاً وحذراً وتفتحاً ، وفى الوقت نفسه يهىء له الفرصة لينمى ذهنه . ولا أعنى أن التلميذ يبدأ فى دفع ٢ (بايس) كل ساعة يعملها من بدء دخوله للمدرسة ، ولكنه يدفع طوال السبع سنوات دراسية بحساب ٢ (بايس) فى الساعة .

إنها لخرافة ما بعدها خرافة أن يظن البعض بأن هذا النوع من التدريب المهنى سوف يجعل من التعليم شيئاً قبيحاً يشل عقل التلميذ ويقتله . إن أسعد ذكرياتى هى رؤية وجوه الأطفال ضاحكة باسمة أثناء تعلمهم قواعد الحرفة تحت إشراف معلمين أكفاء . وعلى العكس من ذلك ، فإنى أعرف أن المواد

الدراسية التى عادة ما تكون محببة لدى الطفل كثيراً ما يعرض عن دراستها عندما يدرسها معلم غير كفء بطريقة رديئة. وقد يسأل البعض منا، من أين نعثر على المعلمين القادرين الأكفاء الذين يتجاوبون مع رسالتنا هذه ؟ وردى على ذلك هو أن الضرورة هى أصل الاختراع والابتكار . فعندما نحس بالحاجة إلى إعادة توجيه سياستنا التعليمية ، فإن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا التوجيه يمكن توفيرها دون مشقة أو صعوبة ما . وإنى متأكد بأنه فى حالة تخصيص بعض الوقت ومبلغ معين من المصروفات التى تصرف على النظام الحالى للتعليم يمكننا بسهولة تدريب المعلمين الصناعيين الذين نحتاج إليهم فى التدريس . فإذا كانت اللجنة الخاصة بخبراء التعليم فى بومباى حريصة على تخطيط التعليم الابتدائى على الأساس الذى أدعو إليه دون أن تضيع الكثير من الوقت ، فيمكنها من الآن أن تتخذ الخطوات العملية الكفيلة بتحقيق هذا المشروع — أما ما أوصى به فى هذا المجال هو وجوب توفر الإيمان العميق لدى المنفذين لما أدعو إليه . إن هذا الإيمان العميق لا ينمو إلا داخل النفس ، ولن يكتسب عن طريق المعرفة الخارجية . ليس هناك عمل عظيم حقق فى هذا العالم إلا وكان وراءه إيمان حىّ عميق .

ما هى أنواع المهن التى تصلح لتعليمها لتلاميذ مدارس المدينة ؟ ليس هناك من قانون جامد أو قانون معين ينبغى أن نتقيد به . وعلى أية حال ، فإن جوابى على هذا السؤال واضح تماماً . إن كل ما أبغيه وأصبوا إليه هو إنعاش القرى فى الهند . فالقرى فى الوقت الحاضر أصبحت ذيلا ملحقاً بالمدن ، وقد عاشت هذه القرى أجيالا بعيدة تئن تحت نير استغلال الأولين بها كما ترزح تحت جشع استغلالها فى وقتنا الحاضر . إن هذا وضع غير طبيعى . وعندما يحس الذين يعيشون فى المدن بواجباتهم نحو الريف للنهوض به ورد حقه الذى أختلس منه عنوة بعد طول استغلال سيء ، فى هذه الحالة فقط يمكننا القول بأن العلاقة الخلقية والإنسانية بين المدن والقرى سوف تتحقق وتتوطد .

فإذا حرص أطفال المدينة على القيام بدورهم فى هذا العمل الجليل لإعادة البناء الاجتماعى للهند فإن المهن التى يتدربون عليها ينبغى أن ترتبط ارتباطاً مباشراً بما تحتاجه القرى . وكما أرى فإن العمليات المختلفة لصناعة القطن من حلج وتنظيف إلى غزل ونسيج يمكن أن تجيب على الأسئلة التى تجول بخلدنا . وحتى وقتنا هذا فإن القطن يزرع فى القرى ، ويحلج ويغزل ويحول إلى نسيج فى المدن . لكن سلسلة العمليات التى يمر بها القطن فى مصانع الغزل والنسيج من البداية إلى النهاية تمثل مأساة مؤلمة من الإسراف فى الرجال والمواد والقوى الميكانيكية .

إن الخطة التى وضعتها للتعليم فى المرحلة الأولى خلال الصناعات الريفية مثل الغزل والنسيج وغيرهما قد قصدت منها أن تكون الشرارة الأولى لثورة اجتماعية صامتة مفعمة بالنتائج التى لا حدود لها . وإنى أعتبر هذا النوع من التعليم يستهدف أساساً تدعيم القيم الأخلاقية وتوثيق روابط الأخوة بين القرية والمدينة ، وهكذا نجد أنفسنا نمهد لطريق طويل يؤدى بنا إلى محو مساوئ عدم الاطمئنان الاجتماعى فى وقتنا هذا ، وإلى إزالة العلاقة المسمومة بين طبقات الشعب . أما التعليم فى القرى فلا شك أنه يجعلنا نترقب وقف التدهور المستمر فى حياة القرويين ، ويضع الدعائم الراسخة لنظام اجتماعى أكثر عدلا من ذى قبل . فى ظل هذا النظام الاجتماعى لن يكون هناك تفرقة غير طبيعية بين الأثرياء والفقراء بل يصبح كل واحد منا مطمئناً إلى دخل طيب وإلى حقه فى الحرية . كل هذا يمكن تحقيقه دون الخوف من الحرب الدامية بين الطبقات ، ودون صرف المبالغ الطائلة كالتى تصرف على تصنيع قارة كبيرة مثل الهند . ولن يلزم هذا التصنيع الاعتماد الكلى على المصانع المستوردة من الخارج أو المهارات الفنية الأجنبية . أخيراً أقول إنه عن طريق استخدام المواهب الأجنبية العالية المتخصصة فإن مصير الهنود سوف يوضع فى أيديهم كما كان الحال فى الماضى . ولكن من الذى يضع الجرس فى عنق القط ؟ هل سيستمع الناس

الذين يعيشون فى المدينة إلى كلامى هذا ؟ أم سوف تذهب الدعوة التى أبشر بها هباء منثوراً ؟ إن الإجابة على هذين السؤالين والأسئلة المماثلة الأخرى سوف تعتمد على هؤلاء الذين يعشقون التعلم ويعيشون فى المدينة بدلا من اعتمادها على .

٢٠ — الاعتماد على النفس ليس هو الاختبار الوحيد :

تحدث غاندى عن التعلم خلال التدريب على مهنة ما :

« أما إذا نفذ هذا النوع من التعليم فإن نتيجته المباشرة هى اعتماده على نفسه من حيث النفقات التى تصرف عليه . ليكن معلوما لنا أن اختبار النجاح لا يتوقف فقط على مدى إعتماد التعليم من حيث النفقات على نفسه ، بل يتوقف أيضاً على تكوين الفرد المتكامل عن طريق تعليمه الصناعة اليدوية بصورة علمية . وفى الحقيقة إنى أرفض المعلم الذى يعد فقط بجعل التعليم يعتمد على نفسه من حيث المصروفات بأى صورة كانت . إن التعليم الذى يعتمد فى نفقاته على نفسه إنما ينبغى أن يكون نتيجة منطقية لتعلم التلميذ كيف يستعمل كل ملكاته العقلية . فإذا عمل التلميذ فى حرفة ما ثلاث ساعات يومياً فسوف يكسب ما يسد به رمقه ، وكم يكون عظيما أنه بجانب الكسب المادى للتلميذ عن طريق العمل الذى يؤديه ينمو عقله وتسمو روحه . »

٢١ — ختام :

إن التربية الأساسية انبعثت مع البيئة المحلية المحيطة بنا فى الهند وتكيفت بها ، وقد وضعت بصورة تجعلها أكثر ملاءمة مع البيئة الريفية التى نعيش فيها — هذه البيئة التى تشمل سبعمائة ألف قرية وملايين من القرويين الذين يقيمون فيها . أما إذا أهملتهم فكأنك قد أهملت الهند بأكملها . فالهند ليست هى هذه

المدن الكبيرة ، بل هى هذا العدد الذى لا يحصى من القرى المنتشرة فى أرجائها .

والأسس الآتية هى ما تعتمد عليها التربية الأساسية فى التعليم :

١ — جميع مراحل التعليم ينبغى أن تعتمد على نفسها من حيث نفقاتها ، أى فى النهاية فإنها تتكفل بمصروفاتها مع الاحتفاظ برأس المال الذى بدأت به .

٢ — إن المهارة اليدوية ينبغى أن تنمى حتى آخر مرحلة من مراحل التعليم ، أى بمعنى آخر أن أيدى التلاميذ سوف تعمل بمهارة فى خدمة بعض الصناعات الريفية لفترات معينة أثناء اليوم الدراسى .

٣ — يجب أن يكون التدريس فى جميع مراحل التعليم باللغة الإقليمية .

٤ — لن يكون فى التعليم فترة تخصص للتدريب على عبادة دين واحد ، بل يزود التلاميذ بمثل أخلاقية أساسية عالمية .

٥ — إن التعليم سواء ما هو محدد للأطفال أو الكبار ، للذكور أو للإناث ، يجب أن يشق طريقاً له داخل بيوت التلاميذ .

٦ — ما دام التلاميذ الذين يحصلون على هذا النوع من التعليم سيعتبرون أنفسهم جزءاً مكملا للهند ، فإن عليهم أن يتعلموا لغة قومية عامة .

الفصل الرابع

المعلمون

٢٢ — دعوة :

إنى أعرف من المعلمين من يؤمن ، كثيراً أو قليلا ، بالوسيلة التى أدعو إلى تحقيقها فى التعليم الابتدائى . وأعلم أيضاً أن البعض منهم يقوم بإجراء تجارب فى تدريب التلاميذ على بعض المهن . هناك بعض الراغبين الذين يميلون إلى التدريس بهذه الوسيلة ، ولكن لظروف خارجة عن إرادتهم أبعدوا عن مهنة التدريس . ويلوح لى أن وزراء البرلمان يرحبون بالمشروع الذى وضعت مبادئه ، ولذا فإنه من الضرورى أن أحصل على أسماء الذين يرغبون فى تأدية خدماتهم فى هذه التجربة . فهل لهؤلاء الأصدقاء أن يرسلوا لى أسماءهم ومؤهلاتهم والمرتبات التى يطلبونها والشروط التى يريدونها إذا كانت هناك شروط ؟

٢٣ — إلى المتطوعين للتدريس فى التعليم الابتدائى :

إنى جد ممنون لهذه الخطابات التى أتسلمها يومياً رداً على الدعوة التى أعلنتها إلى المعلمين الذين يوافقون على مشروع التعليم الابتدائى الذى أوضحته يوماً بعد يوم فى هذه المقالات ، والذين أظهروا استعداداً طيباً للعمل فى مشروعى هذا . وقد لاحظت من الخطابات التى تسلمتها بأن بعض الكتاب لم يدركوا مغزى المعانى الحقيقية التى تضمنتها دعوتى . وأود أن أصرح فى هذه المناسبة بأنى لن أطلب أحداً دون أن يكون مؤمناً إيماناً كاملاً بالتعليم فى المرحلة الأولى عن طريق الصناعات ، أو راغباً وقادراً على العمل بحب وإخلاص . إنى أقترح على هؤلاء الذين يرغبون فى العمل معى أن يكون لديهم المهارة الكافية فى فن الغزل

والقدرة على تدريس العمليات المتابعة له . وفى الوقت نفسه فإنى سأسجل كل الأسماء التى وردت إلى ، وسوف أحيطهم علماً فى الوقت المناسب بالتقدم الذى أحرزه فى تحقيق هذا المشروع . حقيقة أن دعوتى صدرت نتيجة ما أتوقعه من طلبات من حكومات السبع مديريات ، وحال موافقة هذه الحكومات فإن التجربة سوف تأخذ طريقها فى التنفيذ .

المعلمون فى مشروع التربية الأساسية

(ملخص المحاضرة التى ألقاها غاندى إلى المتقدمين من المعلمين للعمل معه فى مشروع التربية الأساسية) .

إن تعهداتكم قد أدهشتنى . إن الطلبات التى أرسلت إلى ويبلغ عددها ٥٠٠٠ لا تثبت بصورة قاطعة وجود الحافز الوطنى لديكم ، ولكنى أتمنى على أية حال أن يكون هذا الحافز متغلغل فى قلب كل منكم . بجانب هذا ، فإن هذا العدد الضخم من الطلبات يثبت وجود بطالة بين المتعلمين وأنصاف المتعلمين . بل وقد يثبت أيضاً مدى السحر الذى يحيط بوظائف الحكومة . ولا يخفى على أن بعض الأفراد عندما تقدموا بطلباتهم إنما يستهدفون من وراء ذلك زيادة دخلهم بطرق غير مشروعة : ولى كبير الأمل بأن لا يكون بينكم من هو متجه فى هذا الاتجاه . ورغم كل المشاعر الوطنية التى أحس بها فإنى لا أعرف ما إذا كان فى استطاعتى أن أرتبط بالعمل كمعلم مقابل ١٥ روبية فى الشهر . وينبغى ألا يفكر أى واحد منكم فى احتمال توزيع مكافآت فى آخر العام . لذا ، فإن كان منكم من يحس بالأسى والأسف لكتابته العقد ، فعليه أن يسحبه من المسئول فى الوزارة . ولن أدخر جهداً فى إعفائه من هذه المهمة . بعد هذا الحديث يطيب لى أن أقدم تهنئتى لهؤلاء الذين يتمسكون بالعقد الذى ارتبطوا به . وإنى أرجو من الله عز وجل أن يهبكم القوة لتحافظوا على تعهدكم .

إنكم تعلمون علم اليقين بأن خطة هذا المشروع التعليمى قد وضعت متمشية مع البرنامج المعتمد من البرلمان الذى تعهد بأن يكسب المعركة باتباع الطرق السلمية دون الاستعانة بالعنف . لذلك فإن التبشير للإيمان بهذه الفضائل الأساسية يعد الدعامة الأولى التى يبنى عليها المشروع الذى ندعو له . وإن لم تظهروا هذه الفضائل فى علاقاتكم اليومية بتلاميذكم وتجعلونها الصفة الأساسية الغالبة على حياتكم معهم ، فسوف يكون الفشل رائدكم ورائد المدرسة التى تعملون فيها . إنكم تعلمون ما قام بعمله هتلر فى ألمانيا ، فقد كانت عقيدته تتركز فى استعمال العنف دون أن يتوخى الرحمة فى تحقيقه . إن فلسفته تنحصر فى أن السيف هو الروح ، مما دعاه إلى تعليم الأطفال سياسة العنف منذ الصغر . لقد تعلموا كيف يكرهون الأعداء حتى عن طريق دراستهم للحساب. وهكذا نجد الأمثلة المختارة تستهدف غرس الروح العسكرية العنيفة فى الأطفال . فإذا آمنا بهذا المذهب ، كان لزاماً علينا أن نضع نصب أعيننا ضرورة غرس روح العنف منذ الطفولة ، وهذا مالا نؤمن به . وكان نفس الشيء يحدث فى إيطاليا . وأقولها بصراحة وصدق بأنه ليس لدى أى شك فى أنه إذا حقق المشروع التعليمى الذى أدعو إليه بالوسائل التى وضعت له وكان نصيبه الانتشار فى جميع أنحاء الهند ، فإن الثورة الصامتة سوف تأخذ مجراها لتحرير الوطن .

٢٥ ــ أساس عدم العنف :

فى إحدى اجتماعات مكتب التعليم الأهلى أوضح غاندى المعانى السامية والأهداف الخاصة بالتعليم الجديد . وكان فى حديثه مسحة من الحزن ، وقال فى آخر حديثه : « عندما نفذنا مشروع التعليم الجديد كنت أحس بثقة وإيمان قويين ، أما الآن فإنى أشعر بفقدهما . أما كلماتى اليوم فإن لها من القوة ما يجعلها مغلفة بثوب حزين . إن فقدانى للاطمئنان النفسى لا يرجع إلى أسباب خارجية ، بل إلى أسباب داخلية ، وهذا لا يعنى أن إحساساتى قد أصابها

الشلل . وعلى أى حال ، فإن ذهنى يعطينى القوة للعمل المنتج بالنسبة لسنى . وأحب أن أؤكد بأنى لم أفقد الثقة بعدم العنف ، بل على العكس من ذلك فإنى أشعر بأن هذه الثقة أصبحت أكثر عمقاً وأعظم حرارة فى نفسى . لذا فإنى أرجو منكم ألا تقبلوا أى شىء يصدر منى بإيمان أعمى ، بل عليكم ألا تؤمنوا بأى شىء إلا بعد أن تعتقدوا به اعتقاداً جازماً . وإنى على يقين بأننا إذا وجهنا فقط المعلمين وجهة سليمة تتفق مع تعاليمنا فإنى سوف أرقص طرباً .

إن الوجهة السليمة التى أشار إليها غاندى فى حديثه قد وضعها فى الجزء الأول من فلسفته . « ينبغى علينا أن نجعل من هذه المدرسة التدريبية مدرسة لكسب الحرية ، ولحل جميع أمراضنا ، وأولها متاعب الشعب . ولهذا الغرض فسوف ترتكز على عدم العنف . لقد قبلت مدارس هتلر وموسولينى العنف كأساس تعليمى لها ، أما مدارسنا فإنها تنتهج منهجاً قوامه المسالمة وعدم العنف — وهذا ما وضحه البرلمان . ومن ثم فإنه ينبغى أن تحل جميع مشاكلنا دون اللجوء إلى العنف بأى حال . إن الحساب والعلوم والتاريخ التى نعلمها فى مدارسنا لن يكون لها أى اتجاه يشتم منه أنها تؤدى إلى استعمال العنف . وعلينا ألا نركز على صناعات المدينة وحدها ، بل يجب علينا أن نولى اهتماماً كبيراً إلى الصناعات الريفية . هذا إذا شئنا أن نبعث الحياة فى السبعمائة ألف قرية المنتشرة فى أرجاء الهند . وينبغى علينا أيضاً أن لا نولى الاهتمام لعدد محدود منها ، بل ننهض ونرفع من مستوى الصناعات الريفية فى قرى الهند جمعاء . وإنى متأكد بأننا إذا واجهنا دراستنا العلمية وجهة مهنية فسوف يمكننا تحقيق ثورة سليمة . أما الكتب الدراسية فيجب أن توضع لتوجهنا إلى بلوغ نفس النهاية وهى الثورة ».

« وأطلب منكم أن تتقبلوا ما تؤمنون به من حديثى وأن ترفضوا ما ترونه مخالفاً لمعتقداتكم . أما إذا لم يصادف ما أقوله هوى فى نفوس إخواننا المسلمين فعليهم ألا ينصتوا إليه . إن سياسة عدم العنف التى أريد تحقيقها تقتصر فقط على محاربة الإنجليز ، ولن تطبق إطلاقاً على أحوالنا الداخلية ومشكلاتنا — إن عدم

العنف تكون سياسة اتحادية بين الهندوكيين والمسلمين ، هذا الاتحاد لن يكون مبنيا على أساس الخوف المتبادل مثل الحلف الذى بين هتلر وموسلينى » .

٢٦ – معلمو التربية الأساسية :

قال الأستاذ تاو إنه ترك عمله فى الجامعة ليعمل فى التعليم الريفى بسبب رغبته الملحة للاندماج فى مشروع التربية الأساسية ، ثم سأل غاندى « هل يمكن أن تحدد لنا بالضبط المحور الذى يرتكز عليه هذا المشروع ؟ » .

أجاب غاندى «إن محور المشروع يرتكز على أن هناك كثيراً من الصناعات الريفية الموجودة فى القرى يمكن أن يمارسها و يتكسب منها الأطفال والرجال والنساء على السواء» .

ثم تحدث الأستاذ تاو قائلا بأنه يوجد بعض المشكلات والعقبات التى تتعلق بالمعلمين الصالحين . فابتسم غاندى وأمن على كلامه وذكر بأنه يصادف حقيقة هذه الصعوبات . ثم ألقى الأستاذ تاو سؤالا على غاندى « هل تفضل تدريب المعلمين على حرفة ما ، أم يدرس للصناع فن التعليم ؟ » .

أجاب غاندى « إننا نتوقع من المتعلم العادى أن يحذق حرفة ما بسهولة ويسر ، أما الصانع فإنه يحتاج إلى كثير من الوقت ليتعلم التوجيهات العامة الضرورية فى حياة الرجل المتعلم . فمثلا ، إنك كمتعلم يمكنك أن تحذق صناعة التجارة بيسر وسهولة » . ثم قال الأستاذ تاو « إن رجالنا المتعلمين يسعون وراء المال والأعمال المربحة ، إذن كيف نضمن أن تكون لديهم الرغبة فى العمل معك ؟» .

فأجاب غاندى « إذا كان هذا المشروع يصادف هوى فى نفوس المتعلمين فإنه دون شك سيجذب الشباب المتعلم ويبعدهم عن إغراء الذهب . فإن لم يبعث هذا المشروع شعوراً وطنياً جارفاً فى شبابنا المتعلم ، فسوف يكون مصيره الفشل . هناك ناحية قد تكون فى جانبنا وهى أن هؤلاء الذين حصلوا على دراستهم باللغات الهندية ولم يمكنهم الالتحاق بالجامعة فمن المحتمل أن يجدوا رغبة فى العمل فى هذا المشروع » .

الفصل الخامس

نقد وتوضيح

٢٧ — تأييد للمشروع :

« إنى موافق تماماً على ما تدعو إليه ، وأدافع بتواضع عن اقتراحك بشأن تعليم الطفل حرفة مفيدة من الناحية العلمية والثقافية ، وأن تجعله قادراً على الإنتاج منذ اللحظة الذى يبدأ فيها التدريب . ومما لا شك فيه ، أن اقتراحك هذا ما هو إلا اقتراح ثورى ، ومن ثم فإنى أوافقك كليه عليه ، أما القيم الأخلاقية والثقافية والاقتصادية التى يتضمنها اقتراحك سوف يكون لها نفع كبير للفرد والدولة . ولن يقتصر مشروعك هذا على إنماء الاحترام نحو العمل ، ولكن أيضاً يجعل الطفل يعتمد على نفسه وينهض بالقيم الابتكارية الصالحة فى الحياة . لذا فإن هدفنا ينبغى أن يرمى إلى تنمية ذهن الطفل وإشباع حاجاته الجسمية ، والأخلاقية والمهنية . فالمهنة تعلمه المبادئ العامة لكل عمليات الإنتاج ، وفى الوقت نفسه سوف تزود الطفل والشاب بمهارة عملية فى كيفية استعمال الأدوات فى الصناعات جميعها . ويجب أن تتجه مثلنا نحو ربط التعليم بالعمل الإنتاجى فى تنشئه الجيل الجديد ، وهذا يعنى إندماج العمل اليدوى بالمناهج الدراسية العامة حتى تكون وحدة تعليمية تستهدف تنمية أذهان التلاميذ لتقدير الصناعة والإنتاج اليدوى . فالعمل الجسمانى مندمجا مع الجهود الذهنية والأخلاقية ينبغى أن يكون رائدنا فى التعليم . ولذلك يجب ألا تكون هناك هوة تفصل بين العقل والعمل الذهنى » .

« وينبغى أن يشتمل نظام التعليم الابتدائى فى الهند على ما يأتى :

١ — اللغة القومية الأكثر انتشاراً فى الولاية

٢ — الحساب
٣ — المواد الاجتماعية
٤ — الجغرافيا والتاريخ
٥ — أشغال يدوية وأعمال صناعية
٦ — مبادئ العلوم
٧ — الفن والموسيقى
٨ — اللغة الهندوستانية

« قد يكون السؤال الوحيد الذى يثار فى هذا المجال هو السن الذى يلتحق فيه الطفل بالمدرسة . فإذا كان سن الالتحاق هو الخامسة أو السادسة ، فهل يكون من المستطاع أن نبدأ تعليم الطفل حرفة نافعة فى هذا السن المبكر ؟ ومن أين لنا بالميزانية التى يستلزمها هذا التعليم ؟ لن تكون هذه العملية سهلة وقليلة النفقات مع الحرص على انتشار التعليم . وقد أرى أن نبدأ تدريس الصناعات عندما يبلغ الطفل الثامنة أو العاشرة من عمره ، وذلك لأن تعليم مثل هذه الصناعات يتطلب إدراك وثبات كامل فى استعمال الأدوات والخامات . رغماً من ذلك فإن التعليم الابتدائى يجب أن يبدأ من سن الخامسة أو السادسة ، فالطفل لا يحتمل أن يكون بعيداً عن المدرسة أكثر من ذلك . هذا بجانب وجوب تخصيص عشرة سنوات ليصل الطفل إلى مستوى البكالوريا بما فيها التدريب الصناعى والفنى الذى نزمع إدخاله فى المنهج الدراسى . ومهما كان الأمر ، فإنى لعلى شك من ناحية القيمة الاقتصادية لإنتاج التلاميذ وخاصة فى المراحل الأولى من دراستهم . هذا الإنتاج لن يصادف رواجاً فى بلد كالهند تمارس حرية التجارة وتتغير فيها أنماط الأزياء . هذا علاوة على المنتوجات نفسها التى لن تتميز بالمتانة لأنها لم تصنع بطريقة فنية حديثة . فإذا قامت الدولة بشراء هذه المنتوجات مقابل الخدمات والأموال التى تصرف على المدرسة ، فماذا تعمل الدولة بهذه المنتوجات ؟ لذا ، فإنه من الأفضل أن تتولى الدولة الإنفاق المباشر على

تعليم الأطفال عن تبنيها مثل هذه العملية . وبالطبع فإن إنتاج التلاميذ الذين يبلغون ما بين ١٢ ، ١٦ عاماً قد يصلح للتسويق ، وعليه يصبح ما يباع منه مصدراً هاماً من مصادر الدخل للمدرسة » .

« إنى أفضل معالجة هذه المشكلة بالتثقيف بطريقة مختلفة تعتمد على الضرائب اللازمة للإنفاق الضرورى على التعليم » .

« إن فكرة الصناعة المنتجة يمكن أن تحقق فى السنوات الأخيرة للتعليم الابتدائى وتستمر خلال التعليم الثانوى . وينبغى محاولة جعل التعليم يعتمد فى نفقاته على نفسه جزئياً إلى أن يكون الإنتاج صالحاً للتسويق . هناك خطر ينبغى علينا أن نأخذ حذرنا منه وهو أن التثقيف التعليمى للجسم والعقل والروح لا يخضع كلية للدوافع الاقتصادية للتلميذ ، أو إلى اقتصاديات المدرسة» .

« إنى موافق أيضاً على اقتراحك الخاص بالتعليم الابتدائى الذى ينص على أن يستمر إلى مستوى البكالوريا مع تخفيض الساعات المخصصة للغة الإنجليزية وإضافة اللغة الهندوسانية . هذا معناه أنك تزمع إدماج التعليم الثانوى فى نظام التعليم الابتدائى . وفكرتك إذن هى مشروع كامل للتعليم بالمدرسة لمدة عشرة سنوات . وأود أن أضيف إلى ذلك ضرورة تدريس كل المواد باللغة القومية دون اللجوء إلى أى لغة أجنبية . ومن ثم فإن عقل الطفل سوف يتحرر ، وتكون لديه رغبة ملحة فى دراسته لمشكلات المعرفة والحياة التى تزوده بالقدرة على الابتكار والتجديد » .

« وأصرح فى هذا المجال بأن التعليم فى القرون الوسطى كان يعتمد ، إلى حد كبير ، فى نفقاته على نفسه . ويمكن أن يكون كذلك فى وقتنا هذا إذا كان اتجاهنا الاجتماعى والاقتصادى والسياسى سيبقى كما كان عليه فى القرون الوسطى ، أى أنه ينصب على القيم العتيقة المحدودة للطبقات والتفرقة العنصرية فى الاقتصاد والمجتمع والسياسة . لكن الآن بعد أن سيطرت علينا النظم الديموقراطية والاشتراكية والشعبية فإنه من الصعب أن نرجع إلى الوراء . إن الدولة هى القوة

المنظمة للمجتمع لأن لديها الإمكانيات والقوانين المنفذة ، ولذا فإن الواجب عليها أن تتحمل أعباء هذا العمل . إن الجماعات القوية القديمة — الجنس — الطبقة — الطائفة — الكلية — الكنيسة — قد فقدت قوتها وسيطرتها ، وإمكانياتها وقوانينها ، ولم يصبح لها مكاناً مرموقاً فى وقتنا هذا كما كانت عليه فى القرون السابقة . وكذلك نجد الناس لا يشعرون بالثقة والطمأنينة نحو هذه المنظمات . فكل القوى الاجتماعية قد حولت إلى نظام سياسى يعتبر ، حتى فى الهند ، قوة اجتماعية اقتصادية . ومهما كان الأمر ، فإن لدينا مثاليتان ، الأولى مثالية القرون الوسطى والثانية مثالية العصر الحديث ، إحداهما ازدواجية وظيفية والأخرى اتحادية محلية — إن هاتين المثاليتين لن يعملا معاً » .

« لم يكن هناك تربية عالمية فى الماضى ، أو ولاية ديموقراطية متحدة ، أو نظرة شعبية تساوى بين الناس » .

« إن فكرة الإلزام لخدمة التعليم ليست فى وقتنا الحاضر بالفكرة الجديدة ، ولكن على أى حال يمكن اتباعها . ليدعو البرلمان الوزراء المحليين بما لديهم من سلطة رسمية ، والمثقفين فى الدولة لحث هؤلاء الذين يؤمنون بالتعليم لأن يجندوا أنفسهم لمساعدة الحكومة القائمة فى محو الأمية ونشر الثقافة والتعليم . ولا أشك فى أن هذه الجهود سوف تكون رأياً شعبياً عاماً مبنياً على أساس جديد سوف يخدم الغرض الأسمى من بعث التماسك وتنظيم القوى الجماعية والذهنية لأفراد الشعب الهندى » .

عندما كتبت أول مرة عن اعتماد التعليم الابتدائى فى نفقاته على نفسه وذلك خلال صناعة ما ، طلبت من إخواننا المربين أن يتكرموا ويزودونى بآرائهم ، وكان الأستاذ بانتامبيكار من أول الذين أرسلوا إلى وجهات نظرهم . فقد أرسل خطاباً منطقياً طويلا ، ولضيق المساحة المخصصة لى للكتابة لم أتمكن من التعليق على رسالته قبل ذلك . وما ذكرته أعلاه هو مقتطفات من خطابه ، وقد اضطررت أن أختصر رسالته وأحذف منها ما هو متعلق بالتثقيف والتعليم الجامعى . أما

المؤتمر القادم الذى سيعقد فى القريب سوف يكون محور المناقشة فيه حول اعتماد التعليم الابتدائى فى نفقاته على نفسه عن طريق صناعة ما .

٢٨ – ردود على بعض النقد :

أرسل لى أحد الموظفين الكبار فى التعليم الذى شاء ألا يذكر اسمه ، خطاباً مع صديق لنا ينتقد فيه بدقة وإحكام المشروع الذى وضعته للتعليم الابتدائى . ونظراً لضيق المكان لن يمكننى أن أكتب كل ما جاء فى خطابه من نقد ومناقشة ، ولكن رسالته تستحق الرد عليها نظراً للمجهود الذى بذله فى سبيل كتابتها .

وقد لخص صاحب الرسالة اقتراحاتى فى كلماته الآتية :

١ – التعليم الابتدائى ينبغى أن يبدأ وينتهى بالتدريب على الحرف والصناعات . ومهما كانت أهمية المعلومات العامة التى يزود بها الطفل فإنها ينبغى أن ترتبط بالتدريب المهنى على أنها أشياء مساعدة لعملية التعلم – أما التدريب المقنن عن طريق القراءة والكتابة فى مواد التاريخ والجغرافيا والحساب فإنها تعلم فى المراحل المتأخرة .

٢ – التعليم الابتدائى ينبغى أن يعتمد فى نفقاته على نفسه منذ البداية ، وهذا يمكن تحقيقه بأن تتولى الولاية مسئولية منتوجات التلاميذ .

٣ – التعليم الابتدائى يجب أن يستمر إلى مستوى البكالوريا مع تخفيض حصص اللغة الإنجليزية .

٤ – فكرة الأستاذ شاه الخاصة بتجنيد الشباب من الرجال والنساء للتدريس فى المدارس الابتدائية ينبغى أن تجرب ، وإن أمكن تطبق وتعمم » .

وبعد ذلك استطرد الكاتب قائلا :

« أما إذا شئنا القيام بتحليل دقيق للبرنامج السابق ذكره فسوف نجد أن هذه الأفكار التى بنى عليها هذا المشروع ما هى إلا أفكار تذكرنا بما كان عليه التعليم فى القرون الوسطى ، وفى بعض الحالات يتضح لنا أن هذه الأفكار

بنيت على أساس من الفروض التي لم تختبر ولم يجزم بصلاحيتها بعد » .

وكان من الأجدر بالكاتب ألا يعيد صياغة آرائى بلغته الخاصة ، وكان ينبغي عليه أن يقتبس ما يشاء من الكلمات الصادرة منى . إن الفقرة (١) فى رسالته فيها ما يوحى بالصدق . إن فكرتى لم تحتم ضرورة البدء بتعليم الحرف أو وجوب وضع المعلومات والمواد الأخرى التي تدرس موضعاً مساعداً فى عملية التعليم . على العكس من ذلك ، لقد قلت مراراً وتكراراً أن التعليم العام ككل ينبغي أن يزود الطفل به عن طريق الحرفة وفى نفس الوقت أثناء تقدم الطفل فى التدريب . إن ما أقوله يختلف تماماً عما عزاه إلى الكاتب . إنى لا أعلم ماذا حصل فى القرون الوسطى ، وكل ما أعلمه هو أنه فى القرون الوسطى أو فى أى عصر من العصور لم يكن الغرض إطلاقاً متجهاً نحو نمو الفرد ككل عن طريق الحرف . إن الفكرة التي أدعو إليها جديدة مبتكرة . وإن احتمال ثبات عدم صلاحيتها لا يؤثر على كونها فكرة مبتكرة . وبديهى أن الفكرة المبتكرة لا تسمح إطلاقاً بالهجوم العنيف عليها ، إلا إذا نفذت على مجال كاف واسع . أما القول مقدماً بأن هذا لا يمكن تحقيقه معناه أن كل مناقشة لن نجنى من ورائها أى طائل .

ولم أقل أيضاً بأن التدريب التقليدى عن طريق القراءة والكتابة ينبغي أن يكون فى السنوات الأخيرة من التعليم الابتدائى . على العكس من ذلك ، فإن التدريب التقليدى يبدأ منذ البداية . ومن المؤكد أنه جزء مكمل للأدوات العامة التي يستعملها الطفل فى التعبير عن نفسه ؛ أى نعم ، لقد قلت وأعيد القول ، أن القراءة قد تدرس بعد مدة من بدء الدراسة ، أما الكتابة فإنها تدرس فى الفترة الأخيرة . ولكن كل هذه العملية ينبغي أن تنفذ فى خلال السنة الأولى . وبذلك فإنه فى نهاية السنة الأولى من المدرسة الابتدائية التي أقترح أن تكون مدتها سبع سنوات يمكن للتلميذ أن يحصل فيها على معلومات عامة أكثر مما يتزود بها الأطفال فى مدارس أخرى خلال السنة الأولى من تعليمهم . فالتلميذ فى المدرسة المهنية التي أقترح تعميمها سوف يقرأ جيداً ويكتب الحروف والكلمات بصورة

صحيحة بدلا من «الخربشة» التى يسجلها التلاميذ عادة فى كراساتهم فى الوقت الحاضر والتى يطلق عليها «كتابة» . علاوة على ذلك فإن التلميذ سوف يتعلم مبادئ اللغة والحساب بجانب تدريبه على حرفة إنتاجية يختارها مثل الغزل أو غيره .

أما الجزء الثانى من رسالة الكاتب لم تكن محددة كالجزء الأول . فإن كل ما رغبت فيه هو أن التعليم عن طريق الحرف ينبغى أن يعتمد فى نفقاته على نفسه خلال مجموعة السبع سنوات المخصصة للتعليم الابتدائى . وقد قلت فى مناسبات خاصة أن السنتين الأوليتين قد تصاب المدرسة فيهما بخسائر مادية .

قد تكون الحقبة التى مرت بها القرون الوسطى غير طيبة ، ولكنى على أية حال لست مستعدا بأن أحط من قيمة الأشياء لمجرد أنها من القرون الوسطى . لا شك أن عجلة الغزل التى تستعمل حالياً فى القرية الهندية هى من مخلفات القرون الوسطى ، ولكنها على كل حال عاشت إلى الآن طوال هذا الزمن . ولو أن هذه الاداة أصبحت الآن رمزاً للحرية والاتحاد كما كانت فى العصور الماضية ، إلا أنها أثناء وجود شركة الهند الشرقية كانت رمزاً للاستعباد . إن الهند الحديثة وجدت فى هذه الأداة معنى أكثر عمقاً وصدقاً مما كان يحلم به أجدادنا . وحتى إذا كانت الصناعات اليدوية فى الأيام الغابرة رمزاً للعمل المضنى فى المصانع ، فإنها الآن قد تكون رمزاً وأداة للتعليم فى أسمى وأصدق ما ترمى إليه التربية . فإذا كان لدى الوزراء الخيال والشجاعة الكافيين ، فإنهم دون تردد سوف يقومون بتجربة هذه الفكرة التى أدعو إليها فى التعليم رغماً من هذا النقد المبيت من كبار المسئولين فى التعليم ؛ هذا النقد الذى يعتمد فى أساسه على فروض خيالية لا واقعية فيها .

ورغم أن الكاتب كان منصفاً فى قوله بأنه من المحتمل أن تكون الدعوة التى يدعو إليها الأستاذ شاه فى مشروعه الخاص بالتدريس الإلزامى ملائمة لتنفيذها ، إلا أنه تراجع عن رأيه فى آخر المقال حيث قال :

« إن الرأى الذى يدعو إلى تجنيد المدرسين للتدريس فى مدارس المرحلة

الأولى ، يعتبر في نظرنا انتهاكاً للحقوق الإنسانية . ينبغي أن يقوم بالتعليم في مدارسنا هؤلاء الذين يتطوعون ويهبون أنفسهم لهذه المهنة ؛ هذا إذا كان في عالمنا الحاضر من يهب نفسه ويضفي الحيوية والنور على التعليم . لقد أجرينا تجارب جديدة ، وحاولنا محاولات لا حصر لها مع شبابنا وشاباتنا ، ولكن النتائج أظهرت أنهم خذلونا في دعوتنا . ولا مفر إذن من أن نحتمل هذه الحالة لنصف قرن آخر على الأقل . إن الفكرة مبنية على الرأى الذى يدعو إلى أن التعليم يعتبر أحد الفنون الذى لا يحتاج كثيراً إلى التدريب ، وأن كل واحد منا قد ولد معلماً . كيف لأستاذ كبير مثل ك. ت. شاه أن يصر على مثل هذا القول ؟ هذا الرأى ما هو إلا نزوة من النزوات التى تؤدى نتائجها إلى عواقب وخيمة . ثم كيف يمكن لأى فرد أن يقوم بتدريب التلاميذ على الصناعات اليدوية أو غيرها؟»

إن الأستاذ ك.ت شاه قادر دون شك على الدفاع عن رأيه . وكل ما أريد أن ألفت نظر الكاتب إليه هو أن المعلمين الحاليين فى مدارسنا غير متطوعين . إنهم مأجورون ويسعون وراء لقمة العيش . أما مشروع الأستاذ شاه فإنه يرمى إلى الحصول على المعلمين الذين تتدفق فيهم الروح الوطنية ولديهم الاستعداد للتضحية ، ولديهم أيضاً قسط معين من الثقافة ، ثم يدربهم على إحدى الصناعات اليدوية قبل أن يلحقهم بالتدريس فى مدرسته . ففكرته كما أوضحت ، لها وزن كبير ، بل وتستحق أعظم رعاية . أما إذا كنا نصر على انتظار هؤلاء المعلمين الذين ولدوا ليكونوا مربين فإن علينا أن ننتظر دون جدوى إلى يوم الدين . وإنى أقترح وجوب تدريب المعلمين من جميع النواحى فى أقصر فترة ممكنة ، وهذا التدريب لن يؤتى ثماره إلا إذا كانت الخدمات التى يؤديها شبابنا وشاباتنا صادقة منتجة — وأيضاً إلا إذا كان هناك استجابة منهم إلى هذا النوع من التدريب . وقد يستجيبون قليلا فى أول الأمر عندما يكونون ملزمين ، ولكن هل يفشلون فى أن يستجيبوا عندما يدعون إلى تأدية خدمات إيجابية دون أن يهتموا كثيراً بالحصول على المال ؟ وهنا سأل الكاتب :

١ – «ألا نسمح بالإسراف فى الخامات عندما نترك الأطفال الصغار يعبثون بها فى المدرسة ؟

٢ – هل المبيعات من الإنتاج تتأثر من وجود منظمة مركزية ؟ وما ثمن هذا التأثير ؟

٣ – هل يُلزم الناس بشراء ما فى هذه المتاجر ؟

٤ – وما شأن المجتمعات التى تنتج الآن مثل هذه المنتوجات ؟ وما هو رد الفعل لذلك ؟ »

أما جوابى على هذه الأسئلة فهو كالآتى :

١ – بالطبع سوف يكون هناك إسراف ، ولكن هذا الإسراف فى الخامات سوف يقل تدريجياً إلى أن يصبح التلميذ قادراً على استغلالها فى نهاية السنة الأولى .

٢ – إن الحكومة سوف تمتص الكثير من المنتوجات لاستعمالها الخاص فى مصالحها المختلفة .

٣ – لن يكون هناك إلزام فى شراء ما ينتجه الأطفال ، لكن من المتوقع أن يقبل الشعب على شراء إنتاجهم بدافع من الوطنية والفخر بأن أطفالهم ينتجون ما يسد حاجتهم .

٤ – لن يكون هناك أى تنافس يذكر فى منتوجات الصناعات الريفية . وسوف نكون حذرين فى أن إنتاج التلاميذ لن ينافس المصانع المحلية .

٢٩ – رأى « لأمريكى » فى مشروع التربية الأساسية :

قام الدكتور جون دى بوار الذى يدير معهد جنوب الهند بزيارة إلى مشروع واردها قبل أن يأخذ إجازته الطويلة . وقد بحث فى هذه الزيارة مشروع واردها للتعليم الأساسى ، وجرت مناقشة مفيدة بينه وبين شرى أريا نايا كام وشرى كاكا ساهب . وحرص أيضاً على أن يقضى بضع دقائق مع غاندى . وقال فى حديثه أن هذا المشروع قد وجد تجاوباً عظيما مع نفسه لأنه يعتمد فى أساسه على عدم العنف ، وكان الشىء الذى صعب عليه فهمه هو لماذا لم

يخصص إلا وقت قليل فى المنهج يدرّس فيه مبادئ عدم العنف .

وقال غاندى رداً على سؤاله : « إن انطباعاتك على المشروع صحيحة ، ولكن لا يمكننا أن نجعل المنهج يرتكز على محور عدم العنف . ويكفينا أن نتذكر دائماً أن عدم العنف كإتجاه فى حياة الفرد ينبعث من عقل لا يدعو إلى العنف ، ونحن لا نعترض قبلا بأن الذين قبلوا عدم العنف هم الذين آمنوا به . فمثلا تجد أن جميع أعضاء اللجنة قد لا يقبلون سياسة عدم العنف كمذهب يتبعوه . مثل هؤلاء كالإنسان النباتى الذى لا يحتاج إلى ضرورة إيمانه بسياسة عدم العنف — قد يكون هذا الإنسان نباتياً لأسباب صحية — وحتى هؤلاء الذين قبلوا مشروع سياسة عدم العنف ليس من الضرورى أن يكونوا مؤمنين بها » .

وتحدث دكتور دى بوار قائلا « إنى أعلم أن بعض المربين لا يلقون بالا إلى هذا النظام بحجة أنه مبنى على أساس فلسفة عدم العنف فى الحياة . »

فأجاب غاندى « إنى أعرف ذلك ، وعلاوة على ذلك فإنى أعرف أيضاً بعض القادة من الرجال الذين لن يقبلوا هذا المشروع لأنه مبنى على أساس فلسفة الحياة التى أدعو إليها . ولكن حدثنى عما أفعل ؟ ومما لا شك فيه أن سياسة عدم العنف تأخذ مكاناً رئيسياً فى الأسس التى قام عليها المشروع . ويمكننى بكل سهولة أن أثبت ذلك ، ولكنى أعلم أن هناك قليلا من الحماس لدى الكثير ليروا ما أثبته . ولكن الذين يؤمنون بالحقيقة بأن فى بلد يزخر بالملايين من الفقراء لن يمكنك تعليم أولادهم جميعاً بأى وسيلة كانت ؛ ولذا فإنه إذا نفذ هذا المشروع فإن النتيجة سوف تحقق نظاماً جديداً فى الحياة الاقتصادية للشعب . هذا الحد يرضينى ، كما يرضينى أيضا موافقة البرلمان على سياسة عدم الغنف كوسيلة للحصول على الاستقلال ، وليس كوسيلة للحياة . فإذا قبلت الهند جميع سياسة عدم العنف كمذهب وأسلوب للحياة ، فإننا دون شك سوف يمكننا أن ننشىء جمهورية فى الحال » .

وعلق على ذلك الدكتور دى بوير قائلا : « إنى أعرف ما تقوله ، ولكن هناك

شيئاً واحداً لم يمكنني فهمه وإدراكه . إني أومن بالاشتراكية ، ولذا فإن هذا المشروع يروقني ويجد صدى في نفسي . ولكن كاشتراكي أحس أن هذا المشروع سوف يقطع أوصال الهند من العالم الخارجي في الوقت الذي ينبغي علينا أن تكون جزءاً مكملاً للعالم ، وهذا ما تدعو إليه الاشتراكية دون سائر الفلسفات السياسية الأخرى » .

وعقب غاندي قائلا « إني لا أجد أي صعوبة في الرد على سؤالك . إننا لا نرغب إطلاقاً أن تفصل الهند عن العالم الخارجي. وكل ما هناك أننا نريد أن يكون لنا حرية الاتصال بالبلاد الأخرى ، ولن يحقق ذلك إلا إذا تحررت الهند من وجود القوات الأجنبية في أراضيها . إننا لا نريد أن يستغلنا أحد من كان ، ولا نرغب في الوقت ذاته أن نستغل أي شعب آخر . إننا نهدف من تنفيذ هذا المشروع إلى جعل التلاميذ منتجين ، ومن هنا يمكننا أن نغيّر من حياة هذا الشعب حتى يصبح أكثر إنسانية وتقدماً عن ذي قبل . ولكن لا يعني هذا أننا نرغب في الانفصال عن العالم الخارجي بدليل أن هناك بعض الدول ترحب بالتعامل معنا لأنها لا يمكنها إنتاج بعض السلع المعينة التي تنتجها . وهكذا فإن هذه الدول سوف تعتمد على بعضها البعض ، بشرط أن الدولة المنتجة ينبغي عليها ألا تستغل الدول الأخرى المستوردة » .

قال دكتور دي بوير « ولكن إذا عملت على تبسيط الأشياء حتى أنك لا تشعر بالحاجة إلى دول أخرى ، فإنك في هذه الحالة تستهدف انفصال الهند عن بقية الدول في الوقت الذي أريد أن تكون الهند مسئولة عن أمريكا في نواحي معينة » .

ردّ غاندي قائلا « إنه يمكننا أن نكون مسئولين عن أمريكا إذا كانت العلاقة مبنية على أساس عدم استغلال أي دولة للأخرى . وهنا يمكن لأمريكا أن تتبع سياستنا ، ومن ثم فلن تكون هناك صعوبة ما للتبادل الحر بيننا وبينكم »

وعقب دي بوير « ولكنك تريد أن تبسط الحياة وتنقطع عن التصنيع » .

قال غاندى « إذا أمكننى أن أنتج ما تحتاجه الهند بواسطة ثلاثين ألفاً من العمال بدلا من ثلاثين مليوناً فلن أعترض على ذلك بشرط ألا يوضع الثلاثون مليوناً فى قائمة العاطلين . إنى أعلم يقينا أن الاشتراكيين يحرصون على إدخال التصنيع مستهدفين خفض ساعات العمل ، لساعة أو ساعتين فى اليوم الواحد ، وهذا مالا أوافق عليه » .

— « سوف يتوفر لديهم وقت فراغ » .

— « هل سوف يستغلون وقت الفراغ للعب الهوكى » .

— « لا أقصد أن يقتصر وقت الفراغ على ذلك بل يتعداه إلى إنتاج بعض الصناعات الريفية الابتكارية مثلا » .

— « هذا ما أدعو إليه ، وهو أن يكونوا منتجين لبعض الصناعات اليدوية التى تتميز بالابتكارية والتجديد . ولكنهم سوف ينتجون بأيديهم على أن يعملوا يومياً ثمانى ساعات » .

— « إنك لا تستهدف بالطبع وصول الشعب إلى درجة من الرفاهية حتى يملك كل بيت مذياعاً وعربة . على أى حال فإن هذا ما دعى إليه الرئيس هوفر . بل إننا كأمريكيين نطلب أن يكون لدى كل واحد منا جهازان للراديو وعربتان » .

— « إذا كنا نملك مثل هذا العدد من العربات فلن نجد شبراً من الأرض يمكننا المشى عليه » .

— « إنى أوافقك على ذلك ، بل أكثر منه فإن لدينا حوادث كثيرة من هذه السيارات ، إذ أن عدد الموتى يبلغ سنوياً أربعين ألفا ، وإن كثيرين يصابون بعاهات مستديمة من جراء هذه الحوادث » .

— « على أية حال ، فلن أعيش إلى ذلك اليوم الذى يملك فيه كل هندى فى الريف جهازاً للراديو » .

— « يحيل إلى أن المهاتما (يقصد غاندى) يفكر من ناحية الرفاهية الاقتصادية » .

— « إنى أعلم ذلك ، ولكن ما هى الرفاهية ؟ إنها لن تكون بالمفهوم الذى يدعو إلى إعدام الملايين من أطنان القمح كما هو الحال فى أمريكا » .

— « أى نعم ، هذه هى غضبة الرأسمالية ونقمتها . إن الرأسماليين لا يعدمون القمح الآن ، بل إنهم يأخذون من الدولة الأموال بقصد ألا يزرعونه . إن الأمريكيين فى الماضى كانوا يلقون البيض على بعضهم بقصد اللعب عندما انخفض سعر البيض انخفاضاً كبيراً » .

— « هذا مالا أرغبه على الإطلاق . أما إذا كنت تقصد بالرفاهية أن توفر الدولة للفرد الكثير من الغذاء والشراب والكساء مع قدر كاف من العلم ، فإنى فى هذه الحالة أعلن موافقتى . ولكنى لا أود إطلاقاً أن أبتلع الكثير من الغذاء فى معدتى دون أن تكون قادرة على هضمه أو يكون لدى العديد من الأشياء التى لا يمكننى استعمالها . على أية حال ، فإنى لا أرغب مطلقاً فى أن أجد الفقر والعوز والبؤس والقذارة والأتربة فى الهند » .

— « ولكن المهاتما (يقصد غاندى) حدثنا فى كتابه عن تاريخ حياته بأنه يعبد التقشف ويمجد الفقر أينما كانا » .

وهنا أنفجر غاندى ضاحكاً قائلا « إنى أعرف ذلك » .

٣٠ — التعليم الدينى :

كتب أحد المراسلين المسلمين ما يلى :

« خلال الأربعة أشهر الماضية ، ظهرت عدة آراء فى جريدة يوردو (Urdu) تتعلق بمشروع ورداها . وكالعادة لم يحاول أحد من القراء أن يتمعن فى قراءة التقارير أو يتعرف على الأفكار التى تحملها التربية الأساسية . أما الاعتراضات فقد ركزت حول محاور ثلاثة هى :

(ا) أن التعليم الديني قد أهمل تماماً .
(ب) أن البنين والبنات يتعلمون جنباً إلى جنب .
(ح) أن احترام جميع الديانات ينبغي أن تلقن فى هذا المشروع » .

هذه هى الاعتراضات الثلاثة التى كتبت فى جريدة بوردو ، وردى عليها كالآتى :

إن التعليم الدينى فى قالب تعصبى قد ألغى كلية من هذا المشروع . وإن لم يكن هناك دين موحد للولاية فقد يكون من الصعب ، بل أقول من المستحيل ، أن يزود التلاميذ بتعاليم دين معين . ولا شك أن خير التعاليم الدينية هو ما لقن فى البيت . ومن ثم فإنه ينبغى على الدولة أن توفر الوقت لكل طفل ليتزود بالتعاليم الدينية فى بيته أو فى أى مكان آخر . هذا بجانب وجوب توفير الدولة لكل طائفة دينية التسهيلات اللازمة والمساعدات المادية إذا رغبت إحداها فى تدريس تعاليمها الدينية على حسابها الخاص .

أما من ناحية التعليم المشترك بين البنين والبنات فإن اللجنة المشكلة برئاسة زكير حسين لم تلزم التلاميذ والتلميذات على الدراسة معاً . فإذا كانت هناك حاجة إلى مدارس خاصة للبنات فإن الدولة مسئولة عن إنشائها ، ومن ثم فإن مشكلة التعليم المشترك لم تحل حلا قاطعاً ، مؤملين بأن الأيام المقبلة سوف تجد لها الحل المناسب . وإنى حذر من ناحية أعضاء هذه اللجنة ، فإن كل واحد منهم لهم عقلية تختلف عن الآخر — أما من ناحيتى فإن لدى عقلا غير تقليدى وأعلم أيضاً بأن هناك أسباباً كثيرة تحول دون التعليم المختلط . وعلى أى ، فإنى لا أعترض على إجراء أى تجربة فى أى مكان .

أما من حيث ضرورة توحيد التعليم الدينى لجميع الأديان على قدم وساق ، فإن لدى من البراهين القوية ما يدعم مثل هذا التوجيه . ولن تصبح الهند دولة سعيدة يتحد فيها مختلف المجتمعات والطوائف إلا إذا حققنا هذا الاتجاه . إنى أعتبرها كارثة ما بعدها كارثة إذا كان اختلاف الأديان يؤثر فى روح الأخوة

والصداقة بين الأطفال الذين ينتمون إلى ديانات مختلفة وإذا تعلموا بأن دينهم هو أفضل دين أنزله الله ، أو أن دينهم هو فقط الدين الحق . فإذا كانت هذه الموجه العارمة من التعصب تجتاح الهند ، فإن هذا يعنى وجوب إنشاء مدارس خاصة لكل طائفة من الطوائف الدينية ، يعطى لها الحرية فى هدم الطوائف الأخرى أو الدعوة إلى سحقها وإلغائها . لا شك أن النتيجة المرتقبة من هذا الاتجاه هى الخطر البشع على تماسك الهند ووحدتها . هناك مبادئ عامة فى الأخلاق توجد فى جميع الديانات ينبغى أن تدرس إلى جميع التلاميذ كتعاليم دينية عامة ، وهذا ما نعمل على تنفيذه فى مشروع ورداها للتربية الأساسية .

٣١ — مشروع التربية الأساسية فوق البركان :

واجه غاندى مجموعة من الأسئلة أثارها بعض المشتركين فى المؤتمر . وأول سؤال أثير فى وجه غاندى يتعلق بالشك فى أن التربية الأساسية سوف تصمد على مواجهة المستقبل ، وأن وضعها الحالى يعتبر وضعاً مؤقتاً لن يعمر طويلا . إن العديد من المربين يعتقدون بأنه إن عاجلا أو آجلا فسوف تتخلى الصناعات الريفية عن مكانها ليحل محلها الصناعات المكانيكية الثقيلة . وهل من الممكن لمجتمع تثقف على مبادئ مشروع التربية الأساسية التى بنيت على الحق والعدل وسياسة عدم العنف أن يكون قادراً على الحياة فى عالم يجتاحه موجة جارفة من عمليات التصنيع ؟

وعقب غاندى على هذا السؤال قائلا « هذا سؤال غير عملى لا يؤثر تأثيراً مباشراً فى برنامجنا الحالى . إن موضوع البحث المطروح أمامنا لا صلة له بمستقبل الجيل الجديد ، بل إنه يتناول مدى ملاءمة مشروع التربية الأساسية للحاجات الحقيقية للملايين الذين يعيشون فى القرى الهندية . ويخامرنى الكثير من الشك فى أنه من الإمكان تصنيع القرى المنتشرة فى أرجاء الهند . وأصرح بأن غالبية الهند ستتكون دائماً من قرى علينا أن نوفر لها تعاليم التربية الأساسية . »

ثم سئل غاندى ثانية « ماذا يكون نهاية مشروع التربية إذا تغيرت سياسة البرلمان نتيجة لانتخابات الرئاسة الحالية ؟ » .

فأجاب غاندى بأنه لا داعي للخوف ، وإن أى تغيير يطرأ على سياسة البرلمان لن يمس مشروع التربية الأساسية فى شيء . « وحتى إذا فرضنا جدلا بأن هذا التغيير سيكون له عواقب ما على التربية الأساسية ، فلن يؤثر إلا على السياسة العليا فقط » . ثم استطرد غاندى قائلا « إنكم حضرتم إلى هذا المؤتمر للتدريب لمدة ثلاثة أسابيع حتى يمكنكم القيام بتدريس أساليب التربية الأساسية للطلاب بعد رجوعكم ثانية إلى مدارسكم . لذا ينبغي أن تكون لديكم الثقة الكافية فى أنكم ستجدون الإجابات الشافية للأهداف التى وضعت للتربية الأساسية وأساليب العمل بها . ولو أن مشروعات التصنيع قد أدرجت فى الميزانية لتنفذ فى القريب العاجل إلا أن البرلمان لم يستهدف فى ذلك تصنيع الهند تصنيعاً كاملاً . أما الهدف الذى نسعى إليه هو ، تبعاً لقرار البرلمان الوطنى فى بومباى ، إحياء للصناعات فى القرى. وقد لا يكون فى استطاعتكم إثارة وعى الجماهير عن طريق مشروعات صناعية ضخمة تعرض عليهم ، وذلك لأن هذه المشروعات لن يكون لها تأثير مباشر على زيادة دخل الملايين من الناس . ولكن مشروعات الصناعات الريفية ستزيد من دخل الفرد منهم بصورة مباشرة خلال سنة واحدة . ومهما كان الأمر الذى تدعو إليه لجنة العمل أو لجنة الوزراء ، فإنى شخصياً لا أشعر بأى خطر يواجهنا من النشاط الإيجابى الذى يقوم به البرلمان فى الوقت الحاضر . ورغم أن هذا النشاط البناء انبعث من البرلمان إلا أنه أثبت جدارة وثباتاً لوقت طويل يستحق الذكر . وما التربية الأساسية إلا مبادئ وتعاليم وأساليب انبعثت من كل هذه الأنواع من النشاط البناء . وقد يتغير وزراء التربية والتعليم فى الهند ولكن مبادئ التربيه الأساسية باقية راسخة . لذا فإن هؤلاء الذين يحسون برغبة فى تنفيذ أساليب التربية الأساسية ينبغي ألا يزعجون أنفسهم بالنواحى السياسية البرلمانية . إن حياة أو موت هذا المشروع الجديد إنما يتوقف على مدى

حرصكم على رعايته . »

ثم استطرد غاندى « إن هذه الأسئلة التى وجهتموها إلىّ لاترضينى كثيراً، وذلك لأنها تتصل اتصالا مباشراً بمشروع التربية الأساسية ، علاوة على أنها وسيلة لم تساعدنا كثيراً على توضيح الأمور . وكم أود أن تلقوا علىّ بعض الأسئلة المباشرة التى تتعلق بالمشروع حتى يمكننى أن أوجه النصائح التى هى نتيجة لعصارة خبراتى » .

محور الفكرة

قبل الذهاب إلى الاجتماع ، سأل أحد الأصدقاء غاندى ما إذا كان محور الفكرة التى يرتكز عليها المشروع هو ألا يتحدث المعلمون مع التلاميذ عن أى شىء إلا ما يتصل منها بعمليات الغزل . فأجاب غاندى على هذا السؤال فى الاجتماع العام قائلا :

« هذا تشهير وقذف فى حقى . إنى حقيقة تحدثت عن ضرورة ربط المواد والمعلومات المدرسية ببعض الحرف الأساسية أى بمعنى أنه إذا تزود الطفل ما بين السابعة والعاشرة من عمره بالمعلومات عن طريق حرفة ما ، فإنه ينبغى الا نبدأ بتلقينه المواد والموضوعات المدرسية التى لا علاقة لها بالحرفة التى يتعلمها . ورويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، سوف تحين الفرص وتتكشف لك طرق ووسائل تجعل من الإمكان تدريس كثير من المعلومات التى قد أبعدت فى بدء التدريب على الحرفة ، فإذا اتبعت هذا المبدأ التربوى فى التدريس فسوف تريح نفسك والتلاميذ من بذل مجهودات غير مجدية . وإلى الآن لا يوجد لدينا أى كتاب أو دليل يرشدنا فى هذا المشروع ، ولذا وجب علينا أن نسير على مهل . إن من أهم الصفات التى ينبغى أن تتوفر فى المعلم هو أن يدرك الأشياء بعقل متفتح ، وإذا صادفته موضوعات لايستطيع ربطها بالحرفة التى يقوم بتدريسها فينبغى ألا يتبرم أو يضطرب ، بل يجب أن يبحث عن موضوعات أخرى يمكن ربطها

ربطاً طبيعياً لا افتعال فيه . هذا هو الاتجاه العام ، ولكن قد يحاول بعض المعلمين إيجاد الوسائل والأساليب الملائمة لربط الموضوعات المدرسية التى تلوح لنا الآن صعبة وغير ميسرة لربطها بالحرفة التى تدرس للتلاميذ . وإنى أعدكم بأنه عندما تتجمعَ المعلومات والخبرات لدينا فسوف نزودكم بالكتب والكتيبات التى يمكن لها أن ترشدكم وتوجهكم فى الاتجاه الصحيح . إن المهمة الملقاة على عاتقكم كبيرة وصعبة ولكنى أرى أن هذه المهمة سوف تكون أكثر سهولة للمعلمين من بعدكم بعد المجهودات التى تبذلونها الآن » .

« وقد يسألنى البعض إلى متى نستمر فى عملية حذف الموضوعات . وإجابتى على ذلك هى أن عملية الحذف تستمر إلى نهاية حياة الإنسان . فإن فى نهاية الدراسة سوف تتكشف لك حقيقة الأمر وهى إنك عملت على ربط الموضوعات والمعلومات التى نرى أن ربطها بنشاط التلاميذ سيعود بالفائدة عليهم . وما أبعدته هو ما يستحق الاستبعاد ، أما الموضوعات والمعارف التى اضطررت إلى حذفها حتى نهاية العام الدراسى هى الموضوعات السطحية التى تستحق الحذف . هذه هى خلاصة التجارب التى مرت بى فى الحياة » .

« ينبغى أن ينمو تعليمنا نحو الثورة . وعلينا أن ندرك جيداً بأن العقل يجب أن ينمو خلال العمل اليدوى . فإذا كان مقدراً لى أن أكون شاعراً لما توانيت لحظة فى كتابة قصيدة عن احتمالات استعمال الأصابع الخمسة . لماذا تفكرون فى أن العقل هو كل شىء والبدين والرجلين لا شىء ؟ إن هؤلاء الذين لا يدربون أيديهم ، والذين يتعلمون عن طريقة التربية التقليدية العامة ، ينقصهم « الموسيقى » فى حياتهم وذلك لأن كل ملكاتهم لم تدرب . ومما لا شك فيه أن المعرفة التى يكون مصدرها الكتاب وحدة لا تثير فى التلميذ أى رغبة أو اهتمام لمواصلة التحصيل . فالعقل يعتريه الملل من حفظ الكلمات ، الشىء الذى يجعل الطفل يعيش فى خيال دائم يبعده عن الواقع الملموس . فى هذه الحالة فإن اليد تقوم بالعمل الذى ينبغى ألا تعمله ، والعين ترى الأشياء التى ينبغى ألا تراها ، والأذن

تسمع الأشياء التى يجب ألا تسمعها ، وهكذا فإن اليد والعين والأذن لا تلعب الدور الذى ينبغى أن تؤديه فى حياة الطفل . هذا لأنها لم توجه التوجيه الملائم لاختيار ما يناسبها . فإن التربية التى لا تعلمنا كيف نفرق بين الغث والثمين ، بين الصالح والطالح ، والتى لا توجهنا إلى اختيار النافع ونبذ الضار هى تربية خاطئة غير صالحة . »

تربية العقل عن طريق اليد

ألقى شريمانى أشاديڤى سؤالا على المهاتما غاندى ليوضح للمجتمعين كيف يدرب العقل عن طريق اليدين ، وهنا قال غاندى « إن الفكرة التقليدية هى أن تضاف مادة الصناعات اليدوية إلى المنهج الخاص للتعليم الابتدائى . أى بمعنى آخر ، فإن الحرفة التى يتعلمها بيديه تصبح منفصلة تماماً عن المواد المدرسية التى تعطى له . وهذا معناه ، كما أرى ، إننا نرتكب خطأ كبيراً فى تعليم التلميذ . ولكى نتفادى مثل هذه الأخطاء التعليمية فإنه ينبغى على المعلم أن يتعلم حرفة ما ويربط نواحى المعرفة المختلفة بها حتى يمكن أن يزود التلاميذ بالمعلومات عن طريق هذه الحرفة » .

« مثال ذلك فى الغزل ، فإن لم يكن عندى سابق معرفة بالحساب فإنه لن يمكننى أن أقوم بحساب عدد الياردات من الغزل التى صنعت على آلة الغزل ، أو كم لفة قمت بلفها . . الخ . ينبغى علىّ أن أعرف الأعداد حتى يمكننى أن أقوم بكل هذه العمليات الحسابية ؛ وأيضاً يجب أن أدرس الجمع والطرح والضرب والقسمة . وفى حالة تناولى للعمليات الحسابية المعقدة فإنه ينبغى علىّ أن أستخدم الرموز التى تحتم علىّ تعلم الجبر . وحتى فى ذلك فإنى أصر على استعمال الحروف الهندوستانية بدلا من الرومانية » .

« ثم بعد ذلك يجىء دور الهندسة . هل هناك أفضل من الدراسة العملية

للقرص المثبت بآلة الغزل ليتعرف التلميذ على هندسة الدائرة ؟ ويمكننى أن أدرس كل ما يتعلق بالدائرة بهذه الطريقة دون أن أذكر اسم يوكليد » .

« وقد يسأل أيضاً سائل منكم عن كيفية تدريس الجغرافيا والتاريخ أثناء الغزل. منذ مدة طويلة قرأت كتاباً عن القطن — قصة الإنسانية — وأدهشنى ماجاء به لأنه كتب بأسلوب ساحر شيق . لقد بدأ المؤلف يعرض تاريخ الحياة الأولى للإنسان ، وكيف وأين بدئ فى زراعة القطن ، مراحل نموه وتطوره ، وتجارة القطن بين الدول وبعضها . وعندما أذكر للأطفال الدول المختلفة فلاشك فى أنى سأزودهم بفكرة عن تاريخها وجغرافيتها . ثم أستطرد معهم فى الحديث عن أهم الاتفاقات الاقتصادية المختلفة التى وقعت خلال العصور والحكومات المتعاقبة . لماذا تستورد بعض البلاد القطن وتصنعه وتورده أقمشة إلى الدول الأخرى؟ ولماذا لا تستطيع كل دولة زراعة ما يكفيها من القطن ؟ مثل هذه الأسئلة ستقودنى دون شك إلى تعليم التلاميذ الاقتصاد ومبادئ الزراعة . هذا بجانب أنى سأعلمهم الوسائل التى يستعينون بها ليميزوا بين أنواع القطن المختلفة ، وفى أى أرض تنمو ، وكيف نزرعها ، ومن أين نحصل على بذور القطن .. إلخ . ومن ثم فإن غزل القطن سوف يقودنى إلى كل تاريخ شركة الهند الشرقية ، لماذا حضر المستعمرون إلى الهند ، وكيف حطموا مصانعنا الخاصة بالغزل ، وكيف أن الدوافع الاقتصادية التى دفعتهم للحضور إلى الهند قادتهم فى النهاية إلى التدخل السياسى الحزبى ، وكيف أنهم عملوا على حل الأحزاب الهندية الشريفة وأنشأوا الأحزاب التى تشايعهم وتأتمر بأمرهم . وهكذا يتضح لنا جلياً بأنه ليس هناك نهاية للاحتمالات التربوية التى يتميز بها مشروع التربية الأساسية ، وسوف تبرز الحقيقة بأن الطفل يتعلم سريعاً دون أن يلقن عقله المعلومات التافهة التى تعتمد على الحفظ » .

« لنحاول الآن جعل الفكرة أكثر وضوحاً . وكما هو الحال فى علم البيولوجيا ، فإذا رغبت أن تكون عالماً بيولوجيا عليك أن تدرس وتبحث فى بعض العلوم

الأخرى بجانب علم البيولوجيا . هذا المبدأ العلمى يمكن أن نطبقه على التربية الأساسية . فإذا عزمنا على دراستها كعلم فإن هذا يعنى أنها ستقودنا إلى اتجاهات لا حصر لها من الدراسة والبحث. ولنأخذ آلة الغزل اليدوية كمثل يوضح لنا ما نتحدث عنه ، فإذا لم يحصر الطالب انتباهه فقط على العملية الآلية للغزل التى ينبغى عليه أن يتقنها ، بل يتعداه إلى تركيز اهتمامه أيضاً على روح هذه العملية — فيكون من نتيجة ذلك أن لا يقتصر انتباهه على الغزل بل يتعداه إلى مجالات أخرى عديدة . وقد يسأل نفسه لماذا تصنع الآله اليدوية للغزل من قرص من النحاس مثبت به عمود من الصلب ، وكيف صنعت هذه الآلة قديماً من أى مادة دون النظر إلى متانتها وصلابتها . وقد يهديه تفكيره إلى أن يقف أمام آلة الغزل اليدوية البدائية ويسائل نفسه عن الأسباب التى دعت إلى صنع العمود من الخشب والقرص من الطين أو الأردواز . ومن ثم سوف يكتشف تطور آلة الغزل اليدوية من الناحية العملية ، ويتعرف على المبررات التى جعلت القرص من النحاس والعمود من الصلب — وهكذا فإن على الطالب البحث والدراسة حتى يعرف هذه المبررات . وعلى المعلم أيضاً أن يسائل نفسه عن الأسباب التى جعلت تصميم هذا القرص بقطر معين دون زيادة أو نقص . فإذا عثر التلميذ على الحل المرضى لهذه الأسئلة ، واتضحت له النواحى الرياضية المتصلة بها ، فإن تلميذكم هذا سيصبح مهندساً ممتازاً . ويتضح من كل ذلك أن آلة الغزل اليدوية يمكن أن تكون محوراً لجمع المعلومات ومعيناً لا ينضب للحصول على المعرفة ؛ وليس هناك نهاية لاحتمالات الحصول على المعرفة التى يمكن أن يتزود بها التلميذ عن طريق مثل هذا الأسلوب فى التعلم . ويتوقف مجال الدراسة على مقدار الحيوية والإيمان اللذين يدفعانكم إلى التفانى فى العمل . لقد مكثتم هنا نحو ثلاثة أسابيع وبعد انتهاء هذه الفترة قد تكون استفادتكم كبيرة مدة إقامتكم إذا أصبحتم قادرين على أن تأخذوا هذا المشروع مأخذاً جدياً ، وتحدثوا أنفسكم : « إما أن نعمل على تحقيقه أو نموت فى سبيله » .

« لقد توخيت توضيح هذا المثل الخاص بالغزل لأنى قمت فعلا بممارسته . فإذا كنت نجاراً فإنى قد أعلم تلميذى جميع الأشياء عن طريق النجارة ، أو عن طريق الورق المقوى إذا شاء حظى أن أكون صانعاً للكرتون » .

واستطرد غاندى قائلا ، « إن جل ما نحتاج إليه فى مشروعنا هذا هم المعلمون الذين يتصفون بالقدرة على الابتكار والإبداع ؛ المعلمون المتقدون حمية وغيّرة ، هؤلاء هم الذين يشغلهم التفكير يوماً بعد يوم عما سيعلمونه للتلاميذ . هذا ولن يمكن للمعلم أن يحصل على المعرفة عن طريق الكتب التى تفرض عليه قراءتها ، بل يجب عليه أن يستغل ملكاته الخاصة بالملاحظة والتفكير حتى ينقل المعرفة التى حصل عليها إلى التلاميذ عن طريق الفم ، وذلك بمساعدة إحدى الحرف . هذا يعنى تماماً ثورة فى أساليب التعليم ، بل وثورة فى فلسفة المعلم . حتى يومنا هذا فإنى أراكم مسيرين بتوجيهات تقارير المفتشين ؛ أى نعم ، إنكم تنفذون ما ما يرغب المفتش تنفيذه ، وتسيرون على النهج الذى رسم لكم حتى يمكنكم الحصول على أموال أكثر لمعاهدكم أو مرتبات أعلى لأنفسكم . لكن المعلم الجديد لن يلقى بالاً إلى كل هذه الأشياء ، بل يقول لنفسه « لقد قمت بما على من مسئوليات تجاه تلميذى ، فإذا جعلته رجلا أفضل فإن هذا يعود إلى أنى استخدمت كل الإمكانيات التى بين يدى ؛ وهذا يكفينى . »

٣٢ — مشروع التربية الأساسية فوق بركان :

(تدريب المعلمين عن طريق حرفة ما)

سؤال : فى تدريب طلبة معاهد المعلمين ، هل من الأفضل أن يتعلموا أولا إحدى الحرف ثم يوجهون بعد ذلك إلى أساليب التعليم عن طريق هذه الحرفة ؟ فى هذه الحالة ، فإنهم يُنصحون ليتخيلوا أنفسهم فى سن السابعة وهم يتعلمون كل شيء عن طريق هذه الحرفة . بهذه الوسيلة فإنهم سوف يقضون مدة قبل أن يتقنوا الأساليب الجديدة ويصبحوا معلمين أكفاء .

الجواب : لا ، لن يقضوا مدة طويلة ليصبحوا معلمين أكفاء . ولنتخيل أن المعلم الذى يحضر إلىّ لديه معرفة عملية فى الحساب والتاريخ والمواد الدراسية الأخرى . وإنى سأعلمه كيف يعمل الصناديق المصنوعة من الورق المقوى أو كيف يغزل . أثناء هذه العملية فسوف أبرز له كيف يمكنه أن يستخلص المعرفة التى تتعلق بالحساب والتاريخ والجغرافيا خلال هذه الحرفة ، ولن تأخذ منه طويلاً . لنفرض أنى ذهبت مع ولدى الذى يبلغ من العمر سنوات إلى مدرسة التربية الأساسية ، فنحن الاثنين نتعلم الغزل ، وإنى أربط معارفى ومعلوماتى السابقة بعملية الغزل . لكن بالنسبة للطفل فإن هذا يعد شيئاً جديداً عليه . أما الأب الذى يبلغ سبعين عاماً فإن هذه العملية ما هى إلا تكرار لما سبقها ، ولكنه على أية حال سوف يضع معلوماته فى قالب جديد . وهذا لن يأخذ منه أكثر من أسابيع معدودة ليتقن هذه العملية . ومن ثم فإن لم يُنم المعلم فى التلميذ الذى يبلغ الثامنة من عمره الرغبة والاستجابة ، فإن التلميذ سوف يصبح غزالا آلياً ، أىّ لن يصبح قادراً على الاستفادة من الطرق الحديثة فى الغزل .

سؤال : إن التلميذ الذى حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية يمكنه الالتحاق بالجامعة إذا رغب فى ذلك ، فهل يمكن للتلميذ الذى تعلم عن طريق منهج التربية الأساسية أن يلتحق أيضاً بالجامعة ؟

الجواب : للمقارنة بين التلميذ الذى اجتاز امتحان الشهادة الثانوية عن طريق التعليم العام ، والتلميذ الذى تخرج من مدارس التربية الأساسية ، فإن الأخير سوف يكون أكثر قدرة على الوقوف على رجليه وذلك لأن ملكاته قد نمت وتطورت . ولن يحس بخيبة أمل عندما يلتحق بالجامعة جنبا إلى جنب خريج الثانوية العامة .

سؤال : لقد اشترط فى التلميذ الراغب فى الالتحاق بمدرسة التربية الأساسية ألا يقل سنه عن سبع سنوات ، فهل تقصد بذلك السن العقلى أم السن الزمنى ؟

الجواب : إن سن السابعة ينبغى أن يكون متوسط سن القبول ، وقد يكون

هناك بعض الأطفال الذين يبلغ سنهم أقل أو أكثر قليلا من السابعة . ولا شك فى أنه وضعت فى الحسبان بعض الاعتبارات الخاصة بالجسم والسن العقلى . فقد يمكن لطفل السابعة أن يحقق قوة عضلية كافية أثناء تناوله لحرفة ما ، فى الوقت الذى نجد فيه طفل الثامنة غير قادر على ذلك . ولذا فإنه يصعب على الواحد منا أن يشرع قوانين جامدة لا مرونة فيها . على أية حال ، فإن كل هذه العوامل ينبغى أن تدخل فى الاعتبار .

ثم استطرد غاندى ، « إن هذه الأسئلة تبين أن الكثير منكم يخامرهم الشك ، وهذا أسوأ ما يمكن حدوثه للبدء فى عملنا . ينبغى أن تكون لديكم ثقة قوية . فإذا كان إيمانكم كإيمانى فى أن التربية الأساسية هى الوسيلة التى نتوخى استخدامها لتدريب الملايين من الأطفال على الحياة ، فإن عملكم سيثمر وينتج . فإن لم يكن لديكم هذا الإيمان ، فمعنى ذلك أن هناك بعض الأخطاء قد ارتكبت من المشرفين عليكم فى التدريب . وكان الأجدر بهم أن يصطبغوا بهذا الإيمان أولا حتى يمكن أن ينعكس عليكم . »

بعض المآزق البداجوجية

سؤال : إن المفروض أن ينفذ مشروع التربية الأساسية على القرويين ، فهل هناك أى احتمال لتطبيقه على أولئك الذين يقطنون المدينة ، وإذا كانت الإجابة بنعم فهل يطلب منهم أن ينهجوا النهج الذى وضع للقرية ؟

الجواب : لا شك أن هذا السؤال يرتبط ارتباطاً كلياً بموضوعنا ، ولكنى أجبت عليه فى إحدى مقالاتى فى جريدة الهاريجان Harijan . يوجد لدينا الآن أعمال كثيرة تختص بالقرى ، فإذا أمكننا أن نتولى حل المشكلات التى تتعلق بالتعليم فى الريف فمعنى ذلك أنه سيكون لدينا من العمل ما يشغلنا إلى وقت طويل . ومما لا شك فيه ، أن المربين يفكرون فى المدن أيضاً . ولكننا إذا أخذنا موضوع التربية الأساسية فى المدينة بجانب القرية ، فهذا معناه تشتيت للجهود وتوزيع للقوى .

سؤال : لنفرض أن في قرية ما ثلاث مدارس تقوم كل واحدة منها بتدريس حرفة ما تختلف عن الأخرى ، وإن مجال الدراسة فى إحداها أكثر اتساعاً وتعمقاً من الآخر ، فبأى هذه المدارس ينبغى أن يلتحق التلميذ ؟

الجواب : يجب ألا يوجد مثل هذا التداخل . فإن معظم قرانا صغيرة إلى الحد الذى ينبغى ألا يكون فى كل منها أكثر من مدرسة واحدة . هذا لا يمنع أن تقوم أكثر من مدرسة واحدة فى القرى الكبيرة . وفى هذه الحالة ينبغى أن تكون الحرفة التى تدرس واحدة . ولكنى أود ألا أضع قوانين جامدة غير مرنة ، والخبرة هنا هى التى توجهنا إلى سواء السبيل . فإن إمكان انتشار الحرف المختلفة ، وقدرة هذه الحرف على تدريب ملكات الطلاب كلها نواح هامة ينبغى أن تبحث وتدرس . والفكرة الرئيسية التى وراء كل ذلك هى أن أى حرفة نختارها يشترط فيها أن تنمى وتدرب ملكات الطفل بصورة كاملة ومتساوية . ولذا يشترط فى اختيار الحرفة أن تكون منبعثة من البيئة القروية ، وأن تكون لها أيضاً وظيفة فى حياة القرويين .

سؤال : لماذا يضيع التلميذ سبع سنوات من حياته لتعلم حرفة ما ، فى حين أن مهنته فى المستقبل سوف تكون شيئاً آخر — مثال ذلك ، لماذا يقضى ابن الصراف الذى يتوقع له أن يكون صرافاً فى المستقبل سبع سنوات فى عمليات الغزل ؟

الجواب : إن هذا السؤال يكشف عن جهل كبير بالمشروع الجديد فى التربية — إن التلميذ الذى يلتحق بمشروع التربية الأساسية لا يذهب إلى المدرسة ليتعلم فقط حرفة ما ، بل إنه يلتحق بها ليحصل على التعليم الابتدائى ، ليدرب عقله عن طريق الحرفة . وإنى أؤكد بأن الطفل الذى يقضى سبع سنوات فى المنهج الجديد للتعليم الابتدائى سوف يصبح صرافاً ماهراً إذا قورن بالطفل الذى درس سبع سنوات فى المدرسة الابتدائية العادية . وإن الطفل الأخير عندما يذهب إلى مدرسة التجارة يحس بمرارة وعدم كفاية لأن جميع ملكاته لم

تدرب تدريباً كافياً . وسوف أحس بأنى قضيت يوماً نافعاً معكم إذا جعلتكم تدركون هذه الحقيقة الهامة ؛ وهى أن مشروع التعلم الجديد لا يستهدف تعليم القليل من المواد النظرية والقليل من تعلم حرفة ما . إن أساس المشروع هو تربية كاملة للطفل فى المرحلة الأولى عن طريق إحدى الحرف .

سؤال : هل من الأفضل تعلم أكثر من حرفة فى كل مدرسة ؟ قد يبدأ الأطفال بالشعور بالضجر نتيجة استمرارهم فى مواصلة العمل فى نفس الشىء من شهر إلى شهر ومن سنة إلى أخرى .

الجواب : إذا وجدت معلماً قد أصبح فاتراً مع تلاميذه بعد شهر من تدريسهم عمليات الغزل فإنى لن أتردد فى فصله من عمله فوراً . وكيف يكون فاتراً وهناك جديد فى كل درس يلقيه كما هو الحال فى القدرة على بعث ألحان جديدة من نفس الآلة الموسيقية التى يعزف عليها الفنان . أما من ناحية توجيه الطفل لتغيير حرفة بعد أخرى ، فإنه بذلك يصبح كالقرد الذى يقفز من شجرة إلى أخرى دون أن يدرى شيئاً عما يفعله . ولكنى أوضحت سابقاً أثناء مناقشاتنا أن تدريس عملية الغزل بروح علمية تشمل الكثير من المعلومات والمعارف بجانب الغزل نفسه . وبعد وقت ليس بطويل ، فإن الطفل سوف يعلم كيف يقوم بصنع آلة الغزل اليدوية . ونخلص من ذلك ، أنه إذا تناول المعلم تدريس الحرفة بالروح والأسلوب العلمى ، فسوف يتحدث إليهم عن نواح كثيرة مختلفة تؤدى إلى تنمية جميع ملكات الطفل .

٣٣ — « لم تستورد من الخارج »[1] .

إن بيع ألف نسخة من هذا الكتيب يدل على أن الدكتور زاكير حسين وأعضاء لجنته فى المؤتمر الأهلى للتربية الأساسية قد بذلوا مجهوداً زائفاً ظهرت

---

(١) مقدمة كتبها غاندى للطبعة الثانية من كتيب « التربية الأساسية الأهلية » . وقد تناول هذا الكتيب عرض تقرير اللجنة التى شكلت فى مؤتمر التربية الأساسية الذى عقد فى ورداها فى أكتوبر ١٩٣٧ . (المحرر) .

نتائجه فى الهند وفى العالم الخارجى . وأقترح أن يختار اسم آخر لهذا المؤتمر ، وقد يكون أقل جاذبية لعدد كبير من المشتغلين بأمر التربية ، وهذا الاسم هو «التربية الريفية الأهلية عن طريق الصناعات فى القرية» . وما قصدته من وضع كلمة « ريفية » هو إبعاد ما يتعلق بالأذهان من تفكير حول ما يسمى بالتعليم العالى أو الإنجليزى . وإن كلمة « الأهلية » تدل فى الوقت الحاضر فى الهند على المسالمة وعدم العنف. أما الصناعات الريفية فى القرية يقصد بها أن القرويين الذين يستفيدون من هذا المشروع يتوقعون من المعلمين أن يعلموا أبناءهم فى القرى تعليماً من شأنه أن ينمى ملكاتهم عن طريق بعض الصناعات الريفية فى جو متحرر من التقيد والعوائق التى تفرض عليهم من الجهات المسئولة . لذا يحق لنا اعتبار هذا المشروع ثورة فى تعليم الأطفال القرويين . إن هذا المشروع لم يستورد بأى صورة من الخارج . فإذا وضع القارئ هذه الحقيقة نصب عينيه فإنه سوف يكون أكثر قدرة على تتبع المشروع فى تكوينه الأول الذى بدأ بتنفيذه مجموعة من أحسن المربين الذين أعطوه اهتماماً كلياً لا انفصال فيه .

٣٤ — الجماعات المحلية تتولى القيادة :

عقد مؤتمر فى الأسبوع الماضى اشترك فيه ممثلون من الهيئات المحلية فى عواصم المديريات بالهند ، وقد دعوا غاندى لإلقاء محاضرة فى هذا المؤتمر . وهناك واجه غاندى سؤلاً عاماً من أحد الأعضاء . ووضع السؤال فى القالب الآتى : كيف قدرتم لمشروع التربية الأساسية أن يسهم فى التقدم الاقتصادى والسياسى للهند ؟

قال غاندى : « الآن يغمرنى السرور لأسمع هذا السؤال ، ويجدر بى أن أجيب عليه بالقول، بأن النظام الحالى للتعليم الابتدائى فى الهند وضع دون أى فكرة تتعلق بالتطور الاقتصادى للدولة . والدولة بدورها لم تستفد إطلاقاً من الأموال التى تصرفها على التعلم الابتدائى . أما القول بأننا حصلنا على مجموعة

محدودة من الإداريين الذين تخرجوا فيما يطلق عليه « بالتعليم العالى » لا يبرر إطلاقاً الإسراف الذى يحيط بميزانية التعليم الابتدائى . وكثيراً ما تؤلنا هذه الخرافات المحزنة التى تظهرنا بأننا لن يمكننا أن نتحمل مسئوليات الحكم فى الهند إلا عن طريق رجال حصلوا على أجازات علمية إنجليزية ، أو رجال أتقنوا اللغة الإنجليزية . إن مديرى الإدارات العامة التعليمية اعترفوا بأن النظام الحالى للتعليم الابتدائى يؤدى بنا إلى الخسران المبين ، فإن نسبة مئوية ضئيلة من المتخرجين فى المدارس الابتدائية يلتحقون بالمعاهد العليا ويواصلون تعليمهم النظرى ، وحتى هؤلاء الذين يلتحقون بهذه المعاهد لا يوجد بينهم إلا عدد قليل من المناطق الريفية الشاسعة . وأود أن أسال كم عدد الأطفال الذين كان لهم حظ الالتحاق بمدارس القرى فى الولايات الهندية ؟ وحتى هذه المدارس الابتدائية القليلة المبعثرة فى القرى الهندية لا تفيد التلاميذ فى شىء» .

« وهكذا يتضح أن السؤال الذى ألقيته علىّ غير ذات موضوع . إن المشروع الجديد مبنى على أساس اقتصادى سليم ، وذلك لأن كل عمليات التعليم سوف تأخذ مكانها عن طريق تدريس الحرفة . إنها ليست تعليماً نظرياً مع إضافة وقت يخصص للتدريب على الحرفة ، بل إن جميع نواحى التعليم تعطى عن طريق الحرفة . لذا ، فإن الطفل الذى حصل على التعليم — ليكن مثلا فى النسيج — سوف يكون دون شك أسعد حالا من النساج العادى الذى يعد صانعاً فقط . ولن يقول أحد أن النساج لا يؤدى دوراً اقتصادياً . هذا النساج الذى تعلم فى ظل المشروع سوف يعرف الأدوات والوسائل المختلفة لكل العمليات الخاصة بالنسيج ، ومن ثم سوف يحصل على نتائج أحسن كثيراً من النساج العادى . أما من حيث النتائج الاقتصادية لهذا النظام ، كما أسفر التنفيذ عنها خلال الشهور القليلة الماضية ، فإن الدراسات المبنية على الحقائق والأرقام التى جمعها شريمانى أشاديفى خير دليل على نجاح المشروع . إن النتائج التى عرضها علينا أدهشتنا بل وفاقت كل ما توقعناه . وهذا ما أعنيه بالتعليم الذى يعتمد فى نفقاته على

نفسه . فعندما استعمل هذه الجملة « التعليم يعتمد فى نفقاته على نفسه » لا أعنى بأن جميع المصروفات تستقطع من دخل المدرسة ، ولكنى أقصد أن تدفع على الأقل أجور المعلمين من بيع الأشياء التى يقوم التلاميذ بإنتاجها . وهكذا ، يتضح لنا أن الاتجاه الاقتصادى للنظام الأساسى لهذا النوع من التربية يوضح نفسه بنفسه دون أى غموض فيه » .

« هناك جانب آخر من سؤالك يتصل بالوعى الشعبى . ولا أعلم فيما إذا كنت قد قرأت تقرير لجنة كامارايا عن الصناعات الريفية . لقد اتضح من التقرير أن الدخل التقليدى للفرد فى الهند حوالى ٧٠ روبية ، كما أثبت التقرير أيضاً أن القرى الواقعة فى الولايات الوسطى لا يزيد دخل الفرد فيها عن ١٢ إلى ١٤ روبية . لذا فإن الغزل والصناعات الريفية الأخرى قد اختيرت بحيث تسد حاجة القرويين. وهكذا ، فإن التلاميذ الذين حصلوا على تعليمهم عن طريق الحرف الريفية وجب عليهم أن ينشروا هذه المعرفة فى منازلهم وسوف نرى الآن كيف يمكن بسهولة مضاعفة دخل القروى عن طريق إنعاش الصناعات الريفية وإحيائها . إن الكثير من المنازعات فى مكاتب الأقسام التعليمية سوف تنمحى ، هذا إذا حرصتم على أن تكونوا دائماً فى خدمة الأهالى ، وإذا رغبتم أيضاً فى تحقيق هذا النظام الجديد للتعلم تحقيقاً عملياً . وقبل حضورى إلى المؤتمر فضضت خطاباً أرسلته إلى إحدى المدارس جاء فيه أن التلاميذ كسبوا ٧٥ روبية من الغزل بمعدل أربع ساعات يومياً فى ثلاثين يوماً . فإذا كان ثلاثون طفلا يكسبون ٧٥ روبية فى الشهر الواحد ، فإنه يمكنك أن تستنتج مجموع دخل جميع التلاميذ فى المدارس الابتدائية بالهند » .

« وأريد منكم أن تتخيلوا معى نتيجة الإيمان والعزة بالنفس اللذين يتدفقان فى حياة الأطفال نتيجة للوعى الذى يحسونه بأنهم يزيدون من الدخل العام للهند ويسهمون فى حل مشكلة عدم المساواة فى توزيع الدخول السنوية . وهذا بدوره يقود تلقائياً إلى إذكاء الوعى السياسى فى حياة القرويين . إنى أتوقع

أن يعلّم الأطفال كل شيء يتعلق بأمورنا المحلية، وأيضاً بالانحلال الذى انتشر بين ظهرانينا ، وأن يعرفوا الوسائل الكفيلة بوضع نهاية لكل هذا العبث . وجل ما أرغبه هو أن يحصل كل طفل فى الهند على هذا النوع من التعليم السياسى . إن هذا الاتجاه فى التعليم سوف يضيف الكثير إلى معلومات التلاميذ وخبراتهم» .

« وأظن أنى أثبت لكم بالبراهين إلى أى حد يمكن لهذا النظام الخاص بالتربية الأساسية أن يسهم فى إطراد تقدم الناحيتين الاقتصادية والسياسية فى الهند » .

« بعد أن تحدثت عن كل هذا ، أود أن أطلب منكم طلباً . ما دمتم قد قد حضرتم إلى هذا المؤتمر فإنى أطلب منكم أن تقوموا بدراسة هذا النظام فى التعليم ثم تقولون للسيد شاكلاجى والسيد أريانايا كامجي قبل أن تغادروا هذا المكان بعد نهاية المدة المقررة للمؤتمر ما إذا كنتم قد آمنتم بمشروع التربية الأساسية أم لا . وإنى متأكد من أنكم إذا أعطيتم لأنفسكم مهلة ثلاثة أشهر ، فسوف ترون أنكم قد أحييتم مدارسكم ، وأدخلتم قوة جديدة فى حياة التلاميذ . وتستغرق البذرة سنوات عديدة قبل أن تصبح شجرة ، لكن النتائج المحددة للبذرة التعليمية سوف ترون نتائجها فى فترة قصيرة تبلغ شهور عديدة . لقد وضعت أسهل الأشياء وأبسطها أمام الرأى العام الهندى — وهذه الأشياء البسيطة يمكن لها أن تحقق لنا ثورة عارمة تغير من الأوضاع — مثل، إرتداء النسيج المصنوع محلياً بالطريقة اليدوية ، المقاطعة ، إحياء الصناعات اليدوية ، التعليم عن طريق الحرف . وإن لم تقاوم إغراء العهد الحاضر فلن ترى هذه الأشياء البسيطة طريقها إلى النور» .

« مهما كان الأمر ، لا تخدعوا أنفسكم وإيانا . فإذا شعرتم بأنكم غير متحمسين لهذا النظام ، فأرجوكم أن تقولوها كلمة صريحة لا مواربة فيها » .

« هناك كلمة عن المبالغ المخصصة للصرف منها . إن المبالغ التى سوف

تصرفون منها لن تعملوا على تبديدها . ولا شك أنكم ستصرفون على شراء الأدوات والخامات التى يصنع منها إنتاج السنوات المقبلة . فالآلات اليدوية للغزل ، وأنوال النسيج ، وأدوات عمل الورق المقوى التى سوف تصرفون جزءا من رأس المال على شرائها ، ينبغى أن تعود بالفائدة على جميع التلاميذ . إن التصنيع يلزم له رأسمال كبير للصرف منه ، ويلزم أيضاً الكثير من العرق والعمل والاستهلاك . أما المشروع الحالى فإنه لا يتطلب شيئاً من هذا ، وبالطبع فإن التخطيط الكامل لإقتصاديات القرية لايحتاج إلى كل هذا التصنيع الآلى الذى يتميز بالضخامة» .

« كلمة أخيرة أقولها لكم ، كل ما أريده منكم هو ألا تتأثروا بالتغيرات المتلاحقة التى تطرأ على نظامنا السياسى . فالوزراء الحاليون قد يذهبون ويحل غيرهم فى مناصبهم . هؤلاء الوزراء تولوا مناصبهم وهم يعرفون بأنهم معرضون للإقالة فى أى وقت ، ويعرفون أيضاً أنه قد تستدعى الحاجة إلى خروجهم من الوزارة ليذهبوا إلى السجن عندما يحين الوقت . سوف يتركون كراسى الوزارة وعلى وجوههم ابتسامة لن تغيب عنها . لذا ينبغى ألا تعتمدوا على الوزراء فى تنفيذ أعمالكم وبرامجكم . فإذا كان عملكم قد خطط على أساس متين فسوف يحق له البقاء دون أى مبالاة لعدد الوزراء الذين يدخلون أو يخرجون من الوزارة . وهذا يعتمد ، دون أدنى شك ، على مقدار ثقتكم فى عملكم . فالبرلمان سوف يبقى ويخلد على مدى الزمن طالما كان متمسكاً بعقيدته الصادقة وحريصاً على سياسة عدم العنف . لقد نقدت البرلمان نقداً شديداً دون رحمة أو هوادة ، ولكنى أعرف يقيناً أن البرلمان يؤدى عملا متزناً لا انحراف فيه » .

« علاوة على كل هذا ، دعونى أقول لكم أن كل شىء سوف يعتمد على ثقتكم وإرادتكم . فإذا كانت لديكم الإرادة القوية فسوف يكون الطريق مفتوحاً أمامكم . فكل عقبة تصادفكم سوف تذللونها ما دمتم تصرون على أن هذا المشروع ينبغى أن يأخذ طريقه إلى الحياة . ولكن ، فى هذه الحالة ، يجب أن يكون الإيمان صادقاً حياً . الألوف يصرحون بأنهم يؤمنون بالله ، فإذا صادفتهم مشكلات

أو اعترضتهم عقبات فإن إيمانهم يصيبه الفتور ويصبح ميتاً لا حياة فيه . إن الإيمان الحى هو ذلك الإيمان الذى يهب صاحبه المعرفة الصادقة والإمكانيات التى تجعله حريصاً على تنفيذ تخطيطه . وإنى لجد مسرور من أن كل واحد منكم لديه هذا النوع من الإيمان . فإذا كان ما أقوله هو عين الحقيقة ، فإن مديريتكم سوف تكون مثلا رائعاً تحتذى به المديريات الأخرى . »

٣٥ ـــ آلة الغزل اليدوى ولعب الأطفال :

إن الاجتماع قد انتهى فى الساعة الخامسة مساء فى ٣١ مارس ١٩٤٠ ، ولكن بما أن غاندى وافق على أن يرد على الأسئلة التى توجه إليه ، فإنه رحب بأسئلة أخرى بعد صلاة المساء . وبعد الصلاة إشترك كثير من الحاضرين فى إلقاء أسئلتهم طوال الليل والآتى أحد الأسئلة وجواب غاندى عليه :

السؤال : هل أدخلت آلة الغزل اليدوية فى مشروع التربية الأساسية بقصد أن تقودنا أخيراً إلى غايات اقتصادية مثل الإعتماد فى النفقات على الإنتاج أو إلى غايات تعليمية ؟

الجواب : إن أى شىء أدخل فى التربية الأساسية قصد منه الوصول إلى غايات تعليمية ، فالهدف من التربية الأساسية هو تنمية النواحى الجسمية والذهنية والخلقية عند الأطفال عن طريق حرفة ما . وإنى أومن بأن أى مشروع مبنى على أساس تربوى سليم ووجه توجيها ملائماً ، يصبح دون شك له تأثير اقتصادى طيب فى حياة التلميذ . وعلى سبيل المثال ، فإنه يمكننا أن نعلم أطفالنا عمل نماذج من اللعب تصنع من الطين على أن نتلفها بعد انتهائهم من عملها . هذا النوع من النشاط يؤدى أيضاً إلى تنمية أذهانهم ، ولكنه فى الوقت نفسه سوف يهمل المبدأ الذى أتوق إلى تحقيقه . هذا المبدأ هو أن العمل الإنسانى والمادى ينبغى ألا يستعملان بطريقة تتميز بالإسراف أو التبديد أو عدم الإنتاج . إننا هنا نركز جل اهتمامنا على مبدأ شغل كل دقيقة من حياتنا فى عمل نافع

مفيد ، وهذه هى أصلح الطرق لتربية المواطن الصالح ، وفى نفس الوقت يمكننا أن نجعل التربية الأساسية تكفى نفسها بنفسها .

٣٦ – الاتجاه النظرى والعمل الحرفى :

كتب شرى ناراهارى يقول :

« إنى أشعر بأن التركيز الموجه على التدريب النظرى فى كثير من المدارس التى تهتم بحرفة النسيج الشعبى وغيرها ، هو فى حقيقة الأمر توجيه خاطئ . وقد خصصت بعض الساعات للعمل الحرفى والبعض الآخر للعمل النظرى . لكنى أعتقد بأن المعرفة لا يمكن أن يتشربها الفرد إلا عن طريق قراءة الكتب . وأنا بدورى أصرح بأن الاطراد الذهنى يمكن تحقيقه فى تلاميذنا عن طريقة العمل الحرفى أكثر من الكتب . وأكون شاكراً إذا تفضلتم بالإدلاء بآرائكم فى هذا الموضوع . »

إن شكاية الكاتب لها ما يبررها . فالتدريب النظرى لا يكون دائماً امتداداً للذهن . فإنه أساساً يعد ناحية من نواحى الحفظ ، فالحرف تطبع على العقل كما تطبع أى صورة أخرى . لكن التدريب النظرى أكثر من مجرد القراءة وحدها . وبالضبط ينطبق هذا على الصناعات اليدوية . فإن المعلومات الخاصة بالصناعات اليدوية لا تحدد بالحرف فقط ، بل أيضاً تشمل معرفة للنواحى العلمية المتصلة بها . فى هذه الحالة ، فإن اتساع أفق الذهن يكون أكثر وأعمق فى المدارس الثانوية أو المعاهد العليا . ولذا ، فإن تخفيض الفترة المخصصة للتدريب الحرفى أو جعلها جزءاً ثانوياً فى البرنامج المدرسى سوف يكون شيئاً محزناً للغاية . ولا شك أن الطلبة سوف يقللون من قيمة ومكانة المعلومات التى تتصل بالحرف فى تنمية مداركهم وأذهانهم . إن الحفظ من الكتب كثيراً ما يؤثر تأثيراً سيئاً على العين ، ويعوق انطلاق الفكر والإبتكار . ولا توجد مثل هذه الخطورة فى تدريس الحرف والعلوم التى تتصل بها . هذا أيضاً يستدعى قراءة بعض الكتب . لكن هذه القراءة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحرف ، ومن ثم فإن ذلك سوف

يؤدى إلى اتساع فى الذهن . إن هذا هو ما قصدته عندما تحدثت عن التدريب الأساسى . وسوف أشاهد اليوم الذى تصبح فيه هذه الآراء حقيقة ثابتة . وفى نفس الوقت ، علينا ألا نفرق بين التعليم عن طريق الكتب والتعليم عن طريق العمل الحرفى . والأخير ينبغى أن ينظر إليه كجزء مكمل للتربية ويجب أن يتساوى فى الإهتمام بالمواد الأخرى . هذه الحقيقة ينبغى أن يعترف بها فى المدارس الحكومية على الأقل .

٣٧ — العمل اليدوى والنمو الذهنى

قال غاندى « إن إحدى الشكايات التى صدرت من واحد منكم تتلخص فى أن اهتماماً كبيراً يركز على العمل اليدوى . إنى أومن تماماً بالقيمة التعليمية للعمل اليدوى . إن النظام الحالى للتعليم فى الهند قصد به تدعيم وتخليد هيبة الرأسمالية . إن الذين عاصروا منكم هذا النظام منذ نشأته ، كان طبيعياً منهم أن يتذوقوا هذا النظام ويجدوا فى العمل اليدوى مشقة وأى مشقة . ولم أر واحداً فى مدارس الحكومة أو الجامعات قد أجهد نفسه فى تعليم الطلبة كيف ينظفون الطرق والمراحيض . هنا ينبغى أن نصرح بأن النظافة والصحة العامة تعتبران من أولى الدروس التى يجب تعليمها للتلاميذ . فتنظيف الطرقات والشوارع يعد من الفنون الجميلة التى تحتاج إلى آلام لتعلمها .

« إن الأسئلة التى تتميز بالعمق والفضول ، وأقصد الفضول الذى يدفع إلى جمع معلومات ، هى أولى الخطوات الواجبة فى عملية التعلم . وإن هذا الفضول ينبغى أن يقابل من ناحية المعلم بالعناية والاحترام ، بل يجب أيضاً ألا يقابل بالاستخفاف والازدراء الذى يعتبر كل منهما عدوا لدوداً لنمو العقل وتفتحه . ولن تكون هناك معرفة دون إرهاق وإصرار على التعلم » .

« إن العمل اليدوى ، إذا وجه بذكاء وحكمة ، يعتبر وسيلة فى حد ذاته لتنمية الذهن . وقد يمكن للفرد أن ينمى قدرة ذهنية فائقة بوسائل أخرى ،

ولكن لن يتصف هذا النمو بالاتزان – بل قد يتصف بالفشل الذريع ، وهكذا يصبح الفرد خبيثاً ماكراً . أما الذهن المتزن فهو الذى يتكون من نمو متناسب مع الجسم والعقل والروح . هذا هو السبب فى أننا نعطى للعمل اليدوى المكان الأول فى المناهج الخاصة بالتدريب فى هذا المكان . فالذهن الذى ينمو عن طريق عمل اجتماعى نافع يصبح أداة للخدمة ولن يضل طريقه بسهولة أو ينحرف عن سواء السبيل . فإذا وعيتم هذه النقطة الهامة فإن المبلغ الذى صرفته حكومات الولايات عليكم لتتدربوا فى هذا المركز لن يضيع هباء » .

٣٨ – صفات إنتاج مدرسة التربية الأساسية :

أحضر شرى أريانايا كام تسعة تلاميذ من السنة السابعة ليقابلوا غاندى . وقد قضوا هؤلاء التلاميذ سبع سنوات تقريباً فى مدرسة سيقا جرام للتربية الأساسية . أما التلاميذ السبعة فكانوا من الأطفال الذين عاشوا فى قرية سيفا جرام أو فى القرى المجاورة . إنهم نتاج يبشر بالخير وخاصة إذا قورنوا بهؤلاء الذين يعملون فى الحقول ولم تتح لهم الفرصة للذهاب إلى المدرسة . لقد تميز مظهرهم بالنظافة والبشاشة والخلق الطيب والسلوك المعتدل . وعندما أصبحوا فى حضرة غاندى ، تبسط معهم وألقى بعض النكات جعلتهم يغرقون فى الضحك . وقد جازف واحد منهم فسأل غاندى : أى نوع من الشباب فى سن الأربعة عشر عاماً تتوقعه بعد أن يتخرج من المدرسة أى بعد سبع سنوات من الدراسة فى مناهج مدارس التربية الأساسية ؟ وقد انتهز غاندى الإجابة عن هذا السؤال ليتحدث معهم فى أنه إذا كانت المدرسة قد قامت بواجبها نحوهم ، فإن شباب الأربعة عشر عاماً ينبغى أن يتصف بالصدق ، والنقاء ، والصحة . وبالتالى يجب أن يكون لديهم العقل الريفى . أما عقولهم وأيديهم ينبغى أن تكون قد نمت بصورة متساوية . ولن يكون بين هذا الشباب أى مخادع أو غادر . إن ذكاءهم سيكون دائماً متوقداً ، وفى نفس الوقت لن ينشغل بالهم بخصوص كسب العيش.

فإن فى مقدورهم أن يعملوا بأيديهم فى أى عمل أمين يصادفهم فى حياتهم . ولن يرغب أى منهم الهجرة إلى المدينة . فكما أنهم استوعبوا دروس التعاون والخدمة فى المدرسة فإنهم سوف يؤثرون فى المجتمع المحيط بهم بنفس الروح التى نشأوا عليها ؛ وأخيراً لن يكون بينهم شحاذ أو طفيلى .

٣٩ — أسئلة فى مؤتمر الوزراء[1] :

سؤال : هل يمكن أن تحقق التربية الأساسية دون التقيد بالشرط الخاص باعتماد المدرسة فى مصروفاتها على نفسها ؟

الجواب : دون شك يمكنكم أن تقوموا بهذه المحاولة ، ولكنكم إذا رغبتم فى الاستماع إلى نصيحتى فإنى سوف أقول لكم إنه من الأفضل ألا تلقون بالا إلى التربية الأساسبة عامة . إن الاكتفاء الذاتى ليس شرطاً ملزماً لقبول التربية الأساسية ، ولكنه بالنسبة لى محك الاختبار . وهذا لا يعنى بأن التربية الأساسية سوف تكتفى اكتفاء ذاتياً منذ بدايتها الأولى — ولكن عندما نأخذ فى الحسبان مدة السبع سنوات التى تستغرقها خطة التربية الأساسية فإن الإيرادات والمصروفات ينبغى أن تكونا متساويين . وإن لم يتحقق ذلك ، فهذا يعنى أنه بعد نهاية فترة التدريب فإن طلبة التربية الأساسية لن يكونوا لائقين للحياة . فإن لم يعتمد التعليم الجديد Nai Talim فى مصروفاته على موارده فسوف يصبح كجسم ميت لا حياة فيه .

سؤال : إننا قبلنا مبدأ التعليم عن طريق حرفة أساسية ما . ولكن المسلمين يعترضون بعض الشىء على آلة الغزل اليدوية . من المحتمل أن يكون تركيز اهتمامك عن الغزل صحيحاً فى المناطق التى توجد بها زراعة القطن ، ولكن

---

(١) عقد مؤتمر الوزراء فى قاعة الاجتماعات فى مدينة بونا برئاسة شرى ب . ج . خير فى المدة ما بين ٢٩ ، ٣٠ يوليو ١٩٤٦ . وقد حضر غاندى هذا الاجتماع لفترة تزيد عن ساعة . (المحرر)

هل تتفق معنا بأن هذا الغزل لا يلائم المناطق التى لا ينمو فيها القطن ؟ وهل يمكن اختيار حرف أخرى عوضاً عن الغزل فى الأماكن التى لا يزرع فيها القطن ولتكن حرفة الزراعة نفسها مثلا ؟

الجواب : هذا سؤال قديم جداً . فإن أى حرفة أساسية تستخدم كوسيلة للتعليم ينبغى أن يكون لها صفة العالمية . وحتى قبل سنة ١٩٠٨ وصلت إلى نتيجة هامة تتلخص فى أنه لتحرير الهند وجعلها قادرة على الوقوف على رجليها ينبغى أن تطرق آلة الغزل اليدوى كل بيت . فإذا كانت إنجلترا قادرة على أن تصبح دولة تصدر النسيج إلى الهند بل وإلى جميع أنحاء العالم رغم أنها لا تزرع شبراً واحداً من القطن ، فإنى لا أفهم لماذا لا يمكننا أن ندخل غزل القطن فى بيوتنا — وهل السبب فى اعتراضكم يرجع إلى أن علينا استيراد القطن من الولايات أو المناطق الهندية القريبة ؟ . حقيقة ، لم يكن هناك جزء ما فى الهند لم يزرع فيه القطن فى وقت ما . إن تحديد مناطق معينة لزراعة القطن لم يكن إلا تشريعاً جائراً فرض على الهند تحت ضغط مصالح معينة يقصد من ورائها تصنيع القطن على حساب دافعى الضرائب الفقراء الذين يغزلون القطن فى الهند . وحتى وقتنا هذا فإن شجرة القطن لا تزال تنمو فى جميع أنحاء الهند . مثل هذه الحجج التى عبرتم عنها تظهر عدم قدرتكم على أن تتحملوا المسئوليات الخاصة بمشروعاتنا وإمكانياتنا . إن جميع الصناعات سوف يصيبها الركود والإفلاس إذا كان نقل المواد الخام من مكان إلى آخر يعتبر عقبة كؤداً لن يمكنكم إزالتها .

علاوة على ذلك ، لتجعل شخصاً آخر قادراً على أن يكسى نفسه بنفسه عن طريق مجهوداته الخاصة ، فى الوقت الذى يعيش غيره عارياً ، تعد هذه العملية فى حد ذاتها تربية . إن المتابعة الفطنة لمختلف عمليات غزل القطن يكون لها أثر تعليمى كبير فى حياة الفرد . فإن معرفة هذه العمليات ، فى الحقيقة ، تغطى كل نواحى التعليم التى يمكن أن تطلب من أى فرد معرفتها والتى من المحتمل ألا تتوفر فى أى حرفة أخرى . أما إذا كان إيماننا واضحاً وراسخاً ، وكنا

قادرين على عرض مدى نجاحنا ، فإن المسلمين أنفسهم سوف يحضرون إلينا و يسألوننا عن سر نجاحنا . وعلى أية حال ، فإن القلة منهم لم تدرك بعد أن صناعة النسيج أفادت عدداً كبيراً من المسلمين الفقراء عما أفادوه من الرابطة الإسلامية أو أى منظمة إسلامية أخرى . إن أغلب النساجين فى البنجال من المسلمين ، وينبغى ألا ننسى أن مدينة داكا Dacca تتمتع بسمعة عالمية لمنسوجات الحرير التى تنتجها والتى تصنع بأيدى المسلمات اللائى تحترفن الغزل ، وبأيدى الرجال من المسلمين محترفى صناعة النسيج .

نفس الشىء ينطبق على طائفة المهاراسترا Maharastra . فإن أنسب علاج للوهم والضلال هو التركيز على أن يؤدى الفرد عمله كاملاً . إن الحق وحده هو الذى سيخلد ، وكل ما عداه سوف تذروه الرياح أمام تيار الزمن . لذا ينبغى علىّ أن أكمل رسالتى وأدافع عن الحق ولو لفظنى الجميع . قد يكون صوتى الآن ذاهباً أدراج الرياح ، ولكن سوف يسمع عندما تسكت جميع الأصوات الأخرى — هذا إذا كان صوتى هو صوت الحق .

الحلقة المفرغة

سأل أحد الوزراء غاندى باللغة الإنجليزية ، « إن تخريج معلمين أكفاء لهذا النوع من التعليم يحتاج إلى وقت ليس بقصير ، ولذا فما هى الخطوات الواجب إتباعها فى الوقت الحاضر لتحسين نواحى التعليم فى المدارس ؟ » وهنا ضحك غاندى ، وهذا أثار ضحك الآخرين ، وقال له إن لم يستطع التحدث بالهندوستانية فعليه أن يهمس فى أذن من بجواره حتى يقوم بدوره بترجمتها إلى اللغة الهندوستانية .

واستطرد غاندى قائلا « إذا كنت تعرف أن النظام الحالى للتعليم لا يمكن

أن يجعل الهند تحصل على استقلالها ، بل هو نظام يؤدى فقط إلى غرس العبودية فى حياة الهنود ، فإنك دون شك سوف ترفض مثل هذا النظام التعليمى دون اكتراث إلى نوع النظام الذى سيخلفه . سوف تعمل كما يشاء لك العمل فى إطار الأربعة أركان الرئيسية للتعليم الجديد وتكون راضياً عن ذلك . ثم واصل غاندى حديثه مؤكداً بأنه إذا لم يقبل الشعب الوزراء على هذه الأسس ، فمن الأفضل أن يستقيل الوزراء من مناصبهم .

سؤال : تقول إن فى نظام التعليم الجديد لا يحتاج إلى الأموال بل إلى الرجال . لكن لتدريب الرجال فإننا نحتاج إلى دور للتعليم ، وأيضاً إلى المال اللازم لإنشائها . فكيف السبيل إلى خروجنا من هذه الحلقة المفرغة ؟

الجواب : إن علاج الموقف يتوقف عليكم . أقول لكم ابدأوا بأنفسكم . هناك مثل إنجليزى مشهور «الأريحية تبدأ من البيت » . أما إذا عزمتم الجلوس على مقاعد مريحة مثل السادة وتتوقعون أن يقوم الآخرون من « سلالة أقل عراقة» ليؤدوا أعمالكم ، فلن تصلوا بهذة الطريقة إلى نتيجة ما . إنها لم تكن طريقتى فحسب بل أيضاً تجربتى منذ الطفولة ، أن أبدأ بنفسى ثم بالبيئة المجاورة بأسلوب سهل متواضع . ولنعيد فى هذا المجال إحدى صفحات التاريخ من كتاب الشعب الإنجليزى . إنهم قلة من الإنجليز يعدون على الأصابع استقروا فى الهند فى أول الأمر ، ثم لم يلبثوا أن أنشأوا لأنفسهم إمبراطورية أكثر مهابة من الناحية الثقافية عنها من الناحية السياسية . رويداً رويداً أصبحنا اليوم ملتصقين بالإنجليزية كما يلتصق العبيد بصغارهم ، ولو كان ذلك على حساب اللغة القومية . فكروا معى فى الإيمان ، فى الاتحاد ، فى العمل ، فى التضحية والمثابرة التى كانت رائداً للإنجليز . كل هذا يؤكد شيئاً واحداً ألا وهو عندما توجد قوة الإرادة توجد الوسيلة . لنرفع رؤوسنا عالية ونعمل بإخلاص وإيمان دون أن يعترينا اليأس ، وهكذا يمكننا أن نجتاز الصعوبات التى سوف نواجهها .

موقفنا إزاء اللغة الإنجليزية

سؤال : ما هو مكان اللغة الإنجليزية فى البرنامج ؟ هل ينبغى أن تكون هذه اللغة إجبارية أم تدرس فقط على أنها لغة ثانوية ؟

الجواب : ينبغى علىّ أن أتعلق باللغة القومية كما يتعلق الطفل بثدى أمه ، رغماً من الصعوبات التى تقابلها فى لغتنا القومية . إنها المورد الوحيد الذى يزودنى بالحياة . إنى أحب اللغة الإنجليزية عندما تلزم الحدود الموضوعة لها ، ولكنى لن أتورع من أن أكون عدوها اللدود عندما تحتل مكاناً آخر غير مكانها . لقد اعترف العالم أجمع بأن اللغة الإنجليزية هى اللغة الدولية . لذا ، قد نفرد لها المكان الثانى بعد اللغة القومية ، وأن تكون لغة اختيارية فى المدارس والجامعات . وما من شك أن تدريس اللغة الإنجليزية سوف يكون مقصوراً على فئة قليلة ، وليس على الملايين من الشعب الهندى . وكيف لنا أن ندرس اللغة الإنجليزية فى مدارسنا فى الوقت الذى نعجز فيه أن يكون التعليم الابتدائى إلزامياً فى الهند ؟ إن روسيا حققت كل تقدمها دون إستعمال اللغة الإنجليزية . إنها عقولنا المستعبدة هى التى تجعلنا نشعر بأننا لن نحقق شيئاً دون استعمال اللغة الإنجليزية . أما من ناحيتى ، فإنى لم ولن أعترف إطلاقاً بهذا المذهب الذى يدعو إلى الهزيمة .

٤٠ — اللغة القومية واللغة الإنجليزية :

كتب أحد المربين الكلمات الآتية :

« إن لم تأخذ حذرك ، فإنك سوف تجد أن التربية الأساسية فى المناطق الحضرية تأخذ شكلا مختلفاً عنها فى المناطق الريفية . مثال ذلك ، فإن اللغة الإنجليزية سوف تدرس فى مدارسنا لتخدش كبرياء اللغة القومية نتيجة لنمو العقدة النفسية التى تدعو إلى سمو اللغة الإنجليزية على اللغة القومية » .

فأجاب غاندى « ينبغى أن أقر بأن المشروع الذى أدعو إليه قد وضع خصيصاً للقرى ، وعندما كنت أقوم بتنفيذ هذا المشروع تحدثت فى أن بعض التعديل سوف يكون ضرورياً قبل تطبيقه على المدن – وأن هذا التعديل سوف يتناول الصناعات التى سوف تستخدم كوسيلة للتعليم . ولم يخطر ببالى قط أن أدرس اللغة الإنجليزية فى مدارس التعليم الابتدائى . وعلى أية حال ، فإن مناهج المشروع الذى ندعو إلى تطبيقه قد حددت مجالاته فى مدارس المرحلة الأولى . ومما لا شك فيه ، أن ما نقصده بالمرحلة الأولى هو التعليم حتى نهاية المرحلة التى تدعى « بالمرحلة الثانوية » مع تخفيض عدد الفترات المخصصة للغة الإنجليزية . لتفرض اللغة الإنجليزية على التلاميذ معناه إنك تعمل على وقف نموهم الطبيعى ، ومن المحتمل أيضاً أنك تقتل فيهم روح الابتكار . إن تعلم اللغة يعد فى جوهره تدريباً على تنمية الذاكرة . فإن تعليم الأطفال من صغرهم اللغة الإنجليزية تعد ضريبة غير ضرورية ينبغى ألا تفرض على التلاميذ . وقد يتعلم الأطفال اللغة الإنجليزية فى المرحلة الأولى ولكن هذا التعلم سوف يأخذ سبيله دون شك على حساب تعلمهم اللغة القومية . كما أرى أن ما ينطبق على طفل القرية يطبق على طفل المدينة . فإن تربية الطفل ونموه ينبغى أن ترسو على قواعد ثابتة من اللغة القومية . ويالسوء طالع الهند، إنها الدولة الوحيدة فى العالم التى من الضرورى أن تبرهن فيها على أشياء ليست فى حاجة إلى برهان .

٤١ – الطب ومكانته فى التعليم الجديد :

رغماً من أن السيدة أشاديفى منهمكة دائماً فى عملها ، وحرصاً على وقتى ، لقد طلبت أن تحدثنى حديثاً قصيراً . ولذا فقد حضرت إلىّ ومكثت معى مدة خمس دقائق قبل مبارحتى إلى دلهى ، تسألنى إذا كنت أرى أن المعلمين فى مدرسة تاليمى سانج Talimi Sangh فى حاجة إلى أن يتعلمو االطب ، وسألتنى أيضاً إذا كان ينبغى عليها أن تلتحق لمدة أربع أو خمس سنوات فى كلية الطب .

وقد رأيت فى الحال أنه رغماً من هذه المحاولات المضنية التى تقوم بها ، فإنه يصعب على فرد مثل أشاديڤى التى حصلت على أجازة الماجستير فى عهد النظام التعليمى التقليدى أن تتحرر كلية من تأثير هذا النظام على أسلوب تفكيرها .

أما من ناحيتى فلم أحصل على أى درجات علمية يمكن أن أتباهى بها . وقد نسيت مدة طويلة أن أعلق أى قيمة على المعرفة الضئيلة التى حصلت عليها فى المدرسة الثانوية . ولكنى نهلت العلم والمعرفة من أعماق الطبيعة الحية ، ولذا قلت لها :

« إنك تقولين أن أول درس ينبغى أن يلقن لأطفالنا هو كيف يحافظون على أنفسهم وعلى نظافة البيئة المحيطة بهم . وإنى أؤكد لك آن كل ما أريد أن تعرفيه هو الوصول مع الأطفال إلى هذه النتائج . إن التعليم الذى عزمنا على تنفيذه هو التعليم الذى يلائم الملايين من القرويين الهنود ، التعليم الذى يعمل على إسعادهم . إنهم يعيشون جنباً إلى جنب مع الطبيعة ، ولكنهم رغماً من كل ذلك لا يعرفون شيئاً عن قوانين الطبيعة نفسها . أما القليل الذى يعرفونه فهم لا يتبعونه فى حياتهم . لذا فإن التعليم الجديد الذى ننشده هو الذى اشتق من معرفتنا لحالة القرويين التى يرثى لها . ومن ثم فإننا لا يمكننا آن نعرف الكثير عن التعليم الجديد عن طريق الكتب . وكل ما عرفناه ونعمل على تنفيذه فى التعليم الجديد مصدره كتاب الطبيعة . وعلى هذا المنوال علينا أن ندرس القرويين دون أن نبعدهم عن الطبيعة التى يعيشون بين أحضانها . إن جوهر العلاج الطبيعى للإنسان هو معرفة مبادئ الصحة العامة والنظافة على أن يلزم نفسه بهذه القوانين ؛ وأيضاً القوانين التى تتصل بالتغذية الكاملة . وهكذا يمكن لأى إنسان أن يصبح طبيب نفسه . فإن الإنسان الذى يأكل ليعيش ، والذى يتخذ القوى الخمس أصدقاء له ، الأرض ، الماء ، الفضاء ، الشمس ، والهواء ، والذى يعد نفسه خادماً لله الذى خلق كل ذلك — هذا الإنسان لن يقع فريسة المرض . وعندما يمرض فإنه

يستلقى هادئاً معتمداً على الله ويموت فى هدوء إذا جاء أجله المحتوم . أما إذا كانت هناك أعشاب طبية منزرعة فى زمام قريته فإنه دون شك سوف يستعملها . إن الملايين من الهنود يعيشون ويموتون على هذا المنوال دون أى تذمر أو أنين . إنهم لا يسمعون كثيراً عن الأطباء ، وقليلا منهم من كان له حظ مواجهة الطبيب وجهاً لوجه . لكم نتمنى أن تكون عقليتنا ريفية خالصة . إن الأطفال والكبار القرويين يحضرون إلينا ، وعلينا واجب تعليمهم كيف يعيشون عيشة طيبة . فالأطباء يقدرون أن ٩٩٪ من المرضى يعانون أمراضاً راجعة إلى عدم النظافة ، وتناول الأغذية غير الصالحة ، وعدم تناول الغذاء الكامل . فإذا أمكننا أن نعلم هذه النسبة الكبيرة من المرضى فن الحياة فيمكن أن نتغاضى عن الواحد فى المائة من المرضى الآخرين الذين قد يجدون طبيباً إنسانياً مثل الدكتور « سوشيلا نابار » ليعنى بهم . وعلى أية حال فهذه النسبة الضئيلة لا تقلق بالنا فى الوقت الحاضر . أما فى وقتنا هذا فإن الماء النقى ، الأرض الطيبة ، الهواء العليل ، كل هذه القوى الطبيعية غير معروفة لدينا ، ولم نعد نقدر القيمة الكبيرة الموجودة فى الهواء النقى والشمس الدافئة . فإذا اتبعنا بحكمة هذه القوى الخمس ، وإذا كانت تغذيتنا كاملة ومعتدلة ، لأصبحنا نقوم بأعمال نافعة عديدة . وللحصول على هذه المعرفة فنحن فى غير حاجة إلى درجات علمية أو ملايين من الجنيهات . وما نحتاج إليه هو إيمان صادق حىّ بالله ، وحماس لتأدية الخدمات ، ومعرفة لقوى الطبيعة الخمس ، وفهم لمبادئ التغذية . كل هذا يمكن الحصول عليه دون تبديد وقت الطلبة فى المدارس والجامعات » .

٤٢ — مع المربين :

فى اجتماع للتعليم عقد فى مدينة بانتا Panta فى يومى ٢٢ ، ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٧ أضفى غاندى من روحه المؤمنة الكثير على المشتركين فى هذا المؤتمر .

الاعتماد على النفس فى النفقات

منذ بداية الجلسة المخصصة لمناقشة الميزانية حذر غاندى المجتمعين من الانسياق وراء الاتجاه نحو الاعتماد على الحكومات وقال « من المحتمل أن ترحب حكومات الولايات الهندية بإعطائنا من الأموال أكثر مما نطلب منها . ولكن إذا اعتمدنا على هذه الحكومات فهذا يعنى نهاية التعليم الجديد » . إن الميزانية التى عرضت فى الاجتماع لمناقشتها خصصت للسنوات الثلاث التالية . أما بعد انتهاء هذه الفترة فإنه ينبغى أن تعتمد كلية هذه المدارس فى مصروفاتها على نفسها . وبناء على ذلك ، فإنه طلب من المسئولين أن يقدروا هذه الميزانية تبعاً لهذه السياسة . أما إذا لم تصادف هذه السياسة نجاحاً فى نهاية السنوات الثلاث فعليهم أن يعلنوا فشلهم على الملأ فى كل جانب من جوانب الدولة . وعلى أى حال ، فقد يكون الفشل الخطوة الأولى للنجاح عندما يلقى العناية والرعاية اللازمتين .

اعرف حدود إمكانياتك

عندما عرض الطلب الثانى الذى قدمه شرى افينا شيلينجام وزير التربية والتعليم فى ولاية مدراس ، والذى جاء فيه أن مؤسسة سانج الهندوستانية للتعليم الجديد ينبغى أن تدير مدرسة صناعية فى مدراس تتولى الصرف عليها حكومة الولاية ، حذر غاندى الوزراء من تنفيذ مشروعات قد لا تتلاءم وإمكانياتهم المادية والبشرية . لذا نصحهم بألا يعملوا على تشتيت مجهوداتهم ، وألا توضع حكومة مدراس فى موقف لا يحسد عليه . نعم ، إنى أعرف أن ملايين الروبيات قد دخلت ميزانية الحكومات الهندية نتيجة لفرض الضرائب عن طريق القوانين والتشريعات . ولذا وجب على هذه الحكومات أن تزن الأمور بميزان دقيق قبل أن تتصرف فى ميزانيتها . وعلى أى حال ، فإذا اطمأنت حكومة مدراس إلى أن

لديها المعلمين الأكفاء ومتأكدة تماماً من نجاح المشروع ، فيمكنها فى هذه الحالة أن تنفذ مشروع إنشاء معهد للصناعات فى الولاية . وليكن مبدأنا أن من الأصوب لكل واحد منا أن يعرف حدود إمكانياته قبل البدء فى مشروع ما .

تنمية العقل والجسم والروح

قال غاندى فى إحدى اجتماعاته أن النظام التعليمى الذى أنادى وأدعو إليه يقودنا إلى تنمية العقل والجسم والروح . بيد أن النظام التقليدى فى التعليم يعنى فقط نمو العقل . لنعلم أن التعلم الجديد لا يلتزم إطلاقاً حدود تعليم التلميذ بعض المهارات فى الغزل واتجاهات وعادات فى النظافة . إنى أقر بأن الغزل والنظافة هامتان فى عملية التعليم ، ولكن لن يكون لهما أثر يذكر فى حياة التلميذ إلا إذا ساعدناه على نمو شخصيته نمواً متزناً . ثم استطرد غاندى قائلا « لدى اليوم أعمالا أخرى ولكنى أحب أن أؤكد لكم بأن التعليم الجديد لن يبعد لحظة واحدة من مخيلتى . »

دور صناعة « العبك » فى التعليم[1]

ثم تناول غاندى بعد ذلك دور صناعة العبك فى التعليم الجديد فقال « عندما أقمت فى جنوب أفريقيا سنة ١٩٠٨ بدأت تحتل صناعة العبك مكاناً هاماً من تفكيرى » . ثم استطرد قائلا بأنه لن يصر على تركيز التعليم الجديد على صناعة العبك إذا وجدت صناعات ريفية أخرى أكثر صلاحية منها . وعبر غاندى عن شعوره بأنه إذا أصبح جميع الهنود يغزلون لمدة ساعة واحدة فى اليوم ، فإن الهند ستكون قادرة على إنتاج كل ما يحتاجه أبناؤها من ملابس . أما إذا دعونا أن يغزل الهندى ست ساعات يومياً فهذا معناه أنه لن يجد متسعاً

(١) العبك – هو نوع من النسيج المصنوع من القطن يغزل فى الهند يدوياً . وقد أراد غاندى أن يصنع الهنود ملابسهم منه حتى لا تستورد الأقمشة من الخارج . (المترجم)

من الوقت لصناعة « العبك » وذلك ن غالبية الناس لديهم أعمالا كثيرة ليحصلوا منها على غذائهم . إنى دائماً أدعو إلى أنه يجب على الهندى أن يزاول أعمالا عقلية ، ولذا فإن فى نظام التعليم الجديد لا يوجد مكان للعبودية . فإن ساعة واحدة تخصص فى اليوم للغزل معناه أن فى هذه الساعة ينمو الغزال فيها عقلياً وروحياً .

صناعة « العبك » بعد المرحلة الابتدائية

قال غاندى « عندما تحدث أحد المجتمعين مقترحاً بأنه ينبغى علينا أن نعلم على الأقل التلاميذ بعد مرحلة التعليم الابتدائى العمليات المختلفة فى مصانع النسيج ، اعترضت على ذلك ولم أقبل هذا الاقتراح . أما سبب اعتراضى فإنه يرجع إلى أنه ليس الغزل اليدوى الذى يعتبر الصناعة الوحيدة الملائمة بعد المرحلة الابتدائية ، بل إن ملايين التلاميذ الهنود يجب أن لا نحرمهم من احتراف مهن أخرى بعد هذه المرحلة . وقد عرض على أمس السيد ديفر اكاش ما كتبه عن آلة الغزل اليدوى وصناعة المكس . أما إذا كان كل ما كتبه صحيحاً ، فيمكننا القول بأن التلاميذ قد حصلوا على معلومات ومعارف كثيرة أثناء تعلم العمليات المختلفة فى هاتين الحرفتين . إننا نعلم أن إتقان هذه العمليات لن يحقق تماماً خلال التعليم الابتدائى . إن العقبة الكؤود التى تصادفنا فى أننا لم نعلم التلاميذ العلوم التى تتصل بهذه الحرف بصورة مستمرة . فالأساس الأول فى الغزل والنسيج الآلى يعتمد على آلة الغزل اليدوى ونول النسيج اليدوى . أما الغرب فقد أنشأ مصانع الغزل والنسيج ليعمل على استغلالنا . ومهما كان الأمر فإننا لن نحتاج إلى مصانع الغزل والنسيج ، ولكن جل ما نحتاج إليه هو المعرفة لنواحى العلم التى تتصل بآلة الغزل اليدوى ونول النسيج اليدوى . فإذا شاءت الهند أن تقلد أوروبا فى كل ذلك ، فهذا معناه هدم الهند والعالم . »

صناعة « العبك » والمصانع الآلية للغزل والنسيج

عندما أشار الدكتور زكير حسين فى حديثه إلى الصعوبات التى يواجهها المعلمون عندما يفكرون فى مستقبل التلاميذ الذين يتخرجون من مدارس التربية الأساسية ويقدمون طلبات استخدام لمصانع الغزل والنسيج، عقب غاندى قائلا . « إن التلاميذ الذين يتخرجون فى مدارس التربية الأساسية ينبغى ألا يلجأوا إلى مصانع الغزل والنسيج للعمل بها . هذا بجانب إلى أن إنتاج مصانع الغزل والنسيج يجب ألا تباع فى الأسواق المحلية جنباً إلى جنب « العبك» المصنوع محلياً . أما مصانعنا الخاصة بالغزل والنسيج فيمكن أن تسوق منتجاتها خارج الهند . ولنأخذ مثلا بإنجلترا ، فإن الأقمشة المصنوعة فى لانكشير لاتباع فى الأسواق المحلية وذلك لأنها تصدر إلى الأسواق الخارجية . وعلى أى حال فإن إنتاج مصانعنا الخاصة بالغزل والنسيج لن يمكن تسويق منتجاتها فى الخارج إلا بعد مدة طويلة» .

الطريق الذى نتبعه

قال غاندى « ومهما كان الأمر ، يمكننى أن أتصور مدى الصعوبات التى تواجهونها فى هذا الجو المحيط بكم والتى تدفعكم دفعاً قوياً إلى التفكير فى إلحاق التلاميذ بمصانع الغزل والنسيج . ولم يقتصر الأمر عليكم بل تعداه إلى الوزراء الذين لا هم لهم إلا التحدث عن مصانع النسيج . إن الطريق الذى ارتضيناه لأنفسنا هو إما أن نحقق عقيدتنا أو نموت من أجلها . »

ثم استطرد قائلا « لقد أنشأ البرلمان مدارس سانج الهندستانية للتعليم[١] ، ومع ذلك فلم يعيرها اهتماماً يذكر . وفى الوقت نفسه عمل على إنشاء مدرسة تشاركا سانج[٢] . ولكنها أيضاً لم يوالها البرلمان بالعناية والرعاية اللازمتين لإنجاحها .

(١) Hindustani Talimi Sangh

(٢) Charkha Sangh

من الذى يولى هذه المؤسسات اليوم عنايته ؟ نحن نعلم بأنه عندما يكون لدى أعضاء البرلمان بعض المال والخبرة فإنهم يولون اهتمامهم إلى أعمال فى الولاية تعود عليهم بالنفع المادى . ومهما كان الأمر فإن الحالة قد اختلفت الآن وأصبحت الحكومة بأجمعها خاضعة لنا . أما أعضاء البرلمان فلم يدركوا بعد ما للحكومة من قوة وسطوة ، وعلى كل فإن الوقت كفيل لأن يوجههم إلى فهم ذلك . »

لم يعد هناك نفس القوة

أدرك غاندى أن سياسة التعليم الجديد ينبغى أن تدعو إلى تنظيم اجتماعى جديد . ورغم أن لدى الوزراء السلطة المنفذة ، إلا أنه من المحتمل ألا يكونون قد اتفقوا على سياسة سانج التعليمية . ولذا طلب الدكتور زكير حسين من غاندى أن يساعد على تنسيق نواحى العمل بين الحكومة ومدارس سانج Sangh، أو لتترك هذه المدارس لتنظيم نشاطها بما يتلاءم مع رسالتها . وقد اعترف غاندى أنه لم يعد يملك من النفوذ فى الوقت الحاضر ما كان يملك فى الماضى ، ثم قال « إنى لا ألوم الحكومة على جمودها وبلادتها . لقد ورثت من الماضى جهازاً يسير على منوال رتيب . وحتى إذا كنت وزيراً ، فمن المحتمل أن أعمل نفس الشيء . وعلى كل حال ، فإنى لا أزال أناقش هذه النواحى مع البانديت نهرو وغيره . وما من شك أن إحدى مسئوليات الوزراء هى شرح هذه الأعمال حتى يزيدوها وضوحاً . فهل هذا هو الإتجاه الصحيح ؟ »

فأجاب الدكتور زكير حسين « أنا أعتقد أن الخطأ ينحصر فى أن البرلمان لم يوضح إطلاقاً سياسته التعليمية للوزراء . وقبل حضورى قابلت مولانا أبو الكلام أزاد الذى أظهر عطفه على هذه الحالة . وأشار إلى رغبته فى مقابلة « السانج » وهم بدورهم رغبوا فى رؤيته والتحدث معه » .

وعقب غاندى « كان ينبغى على الحكومة أن تدعوك فى أول الأمر . إن الأستاذ سيرجانت يجب أن يعمل تحت إشراف من السّانج . وقد اقترحت على الحكومة أن تبعث إليك بدعوة للتحدث معك » .

التعليم الدينى

أما بخصوص التعليم الدينى فقد رأى الدكتور زكير حسين أن التسهيلات ينبغىأن تقدم إلى هذا النوع من التعليم ، وأن تخصص له فترة معينة فى الجدول المدرسى ؛ ثم يدعون هؤلاء الذين يفهمون معنى الدين للحضور إلى المدرسة لتدريس هذه المادة للتلاميذ . لذا ، ينبغى على الحكومة نفسها أن تشرف على ذلك دون أن تفرض اتجاهاً معيناً ، هذا إذا شاءت أن تبعد عنها ما قد يقال من تدخلها فى التعليم الدينى بالمدارس .

أجاب غاندى « عليك أن تتحدث فى ذلك مع مولانا شاهب . إنى أعلن عدم موافقتى على أن الحكومة تزود مدارسها بمعلمين فى التعليم الدينى . وأخشى إنك إذا استعنت ببعض الأفراد من البيئة الذين يرغبون فى تدريس التعليم الدينى بالمدرسة فقد يدرسونه بصورة مشوهة . وقد لا يمكنك أن توقفهم عن التدريس فى الوقت المناسب . أما إذا رغبت أن تسير فى هذا الإتجاه فإن نتيجته ولا شك ستكون سيئة . إن الذين يرغبون فى تدريس التعليم الدينى يمكن أن يقوموا بذلك على مسئوليتهم الخاصة ، ما دام اتجاههم لا يهدم القوانين أو يتعارض مع النظام أو يقوض الأخلاق . إن الحكومات يمكن فقط أن تعلم الأخلاق المبنية على المبادئ الأساسية المشتركة فى جميع الأديان ، والمتفق عليها من جميع الأحزاب » .

مشكلة الشهادات

أما بشأن السؤال الخاص بالشهادات التى تمنح للذين اجتازوا امتحان التربية الأساسية ، فقد قال غاندى أن الشهادة ينبغى أن تحمل اسماً قصيراً ودقيقاً ، كما يجب أن يذكر فيها تماماً باللغة الهندوستانية الواضحة مؤهلات ودرجات الطالب دون أى مبالغة كانت . ثم استطرد غاندى « إذا اعطيت الشهادة اسماً أكثر مما تستحق ، وكان هذا الاسم لا يتجاوب مع قيمتها ، فإنى أؤكد لكم بأن هذا لن يضفى أى فخر على الذى يعطى هذه الشهادة » .

التعليم المشترك بين البنين والبنات

أحس شرى اڤيناشاليبنجام وزير التربية والتعليم لولاية مدراس أن سياسة التعليم المشترك فى مدارس سانج لا تتلاءم مع هذه الولاية . إنه لا يعترض على التعليم المشترك بين البنين والبنات ، بين الأطفال أو الشباب عندما يكونون ناضجين . ولكنه لا يرضى عن التعليم المشترك فى سن المراهقة أى بين ١٥ و ١٦ عاماً ، وخاصة عندما تلتحق معظم الفتيات بمدارس التدريب . وقد اعترض غاندى على ذلك قائلا « إذا سمحت بالتعليم المشترك فى مدارسكم ولم تنفذوه فى مدارس التدريب ، فإن الأطفال قد يفكرون فى أن هناك شيئاً غير طبيعى فى هذه المدارس . ينبغى على أطفالنا أن يواجهوا هذا الموقف ، ويجب علينا أن نحرر أنفسنا فى يوم ما من هذه العقلية الجنسية . ولا ينبغى أيضاً أن نأخذ أمثلتنا من الغرب . فإذا كان لدى المعلمين فى مدارسنا ذهن نقى مشبع بروح التعليم الجديد ، فلن يكون هناك خطر على الإطلاق . ولنفرض أن هناك بعض الحوادث وقعت نتيجة للاختلاط ، فهذا ينبغى ألا يخيفنا . وما دمت أتكلم بكل صراحة فيجب أن أعترف بأن هناك كثيراً من المخاطرات

غير واع بها . إنك كوزير مسئول ينبغى أن تفكر لنفسك ثم بعد ذلك تعمل طبقاً لما يهديك تفكيرك إليه . »

« العبك » والاعتماد على النفس

عقب شرى چاچوچى على سؤال فى الاكتفاء الذاتى قائلا إن حرفة الغزل والنسيج لا تعود بالربح المجزى على الصانع كالحرف الأخرى مثل النجارة ، وأن هناك شكاً فى أن التلاميذ الذين يتخرجون من المرحلة الابتدائية من التعليم يمكن لهم أن يعتمدوا على أنفسهم فى كسب معيشتهم بعد سبع سنوات من التدريب . إنهم قد يكسبون ثمانية عشر مليماً أو أربعة وعشرين مليماً فى اليوم حسب النسبة التى وضعتها شاركا سانج Sharkha Sangh . علق غاندى على ذلك « علينا ألا نفكر من الناحية المادية فقط . إن نسيج «العبك» يعتبر محور نشاطنا لأننا جميعاً فى حاجة إلى ملابس نرتديها . فالمشكلة فى الهند هى كيف السبيل لتوفير الملابس اللازمة لسبعمائة ألف قرية . إننا اليوم نضطر إلى نسج الغزل الذى نقوم بعمله بعد أن ندفع أجراً عالياً للنساجين . وقد أخطأت التقدير عندما أصررت على تعليم حرفة الغزل دون أن أصر أيضاً على تعليم التلاميذ حرفة النسيج . وعلى أية حال فإنه النسيج لا يتطلب وقتاً أطول مما يمكن أن تخصصه له . أما إذا تطلب هذا العمل كل ما لدينا من وقت فمعنى ذلك أن يتحتم علينا آنئذ أن نفكر فى الأمر من جديد » .

يعمل بوازع من حبه لعمله

ثم إستطرد غاندى « إن المدرس فى التعليم الجديد ينبغى أن يكون مربياً ويحذق حرفة ما ، ولن يستهدف الكسب المادى فقط من تأدية عمله . إن الأجر أو المرتب كلمة أعتبرها سيئة تستعمل استعمالا مادياً بحت . فالمعلم عامل يعمل بعرق جبينه للحصول على لقمة العيش . لذا فهو وامرأته وأطفاله سوف يعملون

أيضاً كما يعمل العمال . وعن طريق هذا الاتجاه يولد التعاون الصادق بين المعلم وعائلته وبين أهالى القرية التى يعيشون فيها . وهذا ما ينبغى أن ينتشر فى كل قرية فى الهند عن طريق رسالة (التعليم الجديد) » .

الزراعة كحرفة أساسية

تحدث غاندى « سألنى بعض الناس لماذا لا تكون الزراعة حرفة أساسية تعلم فى المدرسة . وإجابتى عن ذلك تتلخص فى أن حرفة الزراعة لا تشتمل على الإمكانيات التعليمية التى تتوفر فى صناعة الغزل . فإنها مثلا لا تنمى المهارة التى تحتاج إليها حرفة الغزل . إن وظيفة سياسة التعليم الجديدة ليست منصبة كلية على تعليم مهنة ما ، بل عن طريق المهنة يمكن أن تنمى الإنسان ككل .

« ولو أننى لا أبدأ بتعليم أساليب الزراعة إلا أنها سوف تدخل ضمن العمليات التعليمية ، وذلك لأن مجال التعليم الجديد متسعاً للنواحى العملية . فالتلاميذ ومعلموهم فى المدرسة التى أدعو إلى تعميمها سيقومون بعمل كل ما يحتاجون إليه . فالمدرس فى التعليم الجديد يجب أن يكون صاحب حرفة من الدرجة الأولى . وعليه فإن جميع الأطفال فى القرية سوف يهرعون إليه ليتعلموا من فنه ومعرفته . وهكذا تصبح التربية غير مقيدة بتلقين معلومات تقليدية بل تكون حرة ولها صفة العالمية » .

« وحتى فى وقتنا هذا فإن الخضراوات التى تزرع فى القرى الهندية غير ميسرة للقرويين أنفسهم ليأكلوها . فمثلا نجد القرويين فى ترافانكور لا يأكلون جوز الهند الذى يزرعونه فى مزارعهم ، وذلك لأن هذه الثمرة تجمع فى مكان معين وتصدر إلى المدن . كل هذه الأوضاع الشاذة غير الطبيعية ستنمحى عندما يعم إنشاء مدارس التربية الأساسية فى القرى الهندية . إننا اليوم نتولى زراعة المحصولات التى نكسب من بيعها مثل الخشخاش ، والتمباك ، والقطن وغيرها . أما هؤلاء الذين تدربوا عن طريق التعليم الجديد سوف يزرعون أيضاً الخضر التى يحتاجون إليها » .

القسم السادس

دراسات فى التربية الأساسية

٤٣ ــ الغزل والابتكار فيه :

أرسل إلىّ سكرتير فرع الكارناتاك التقرير الآتى بشأن أعمال الغزل التى نفذت فى المدارس الملحقة بالمؤسسة :

« عندما قرأ القس أشير ويلسن مدير مؤسسة هويلى ، والآنسة بريسكو عميدة مدارس المؤسسة فى بعض الجرائد أن فرع كارناتاك لنقابة الغزالين الهنود قد أرسل معلمين إلى بعض المؤسسات ليعلموا النزلاء العاطلين بها عمليات الغزل ، فكرا فيما إذا كان ينبغى عليهما أن يقوما بهذه التجربة فى مؤسسة هويلى . إن الحماس والغيّرة قد دفعتا القس ويلسن والآنسة بريسكو إلى الاتصال بنا لنساعدهم على العمل فى مؤسسة هويلى » .

« وقد بدأنا العمل فى « بيت ريماند» للأولاد ، وهو بيت يقيم فيه ثلاثة وثلاثون ولداً تختلف أعمارهم ما بين ثمانى وست عشر سنة . وهؤلاء الأولاد يقيمون فى هذه المؤسسة إما بموافقة أولياء أمورهم أو أرسلهم البوليس ليكون الإشراف عليهم محكماً من قبل المؤسسة . إن السبب الرئيسى للاحتفاظ بهؤلاء الأولاد فى المؤسسة هو سوء سلوكهم وانحرافهم نحو اقتراف السرقات . وطبيعى أن يصادف مديرو هذا البيت صعوبات معينة بجعل هؤلاء الاولاد يسلكون الطريق السوى . إن كثيراً منهم لأزوا بالفرار ، وقد استمر البحث عنهم ومتابعتهم حتى حضروا ثانية إلى المؤسسة . ولذا لا يسمح لهؤلاء الأطفال بالذهاب إلى المدارس الابتدائية أو الثانوية فى المدينة خوفاً من هروبهم . أما المسئولون عن مؤسسات الأحداث فلم يجدوا العمل الملائم الذى يشغل أجسام وعقول هؤلاء الأولاد .

وقد انتدبت نقابة الغزالين الهنود معلماً له خبرة فى تدريب الأولاد لمدة ثلاثة أشهر ونصف قام خلالها بتدريبهم على عمليات تنظيف وتصنيف القطن ثم غزله . إن التلاميذ الكبار الذين تقع أعمارهم ما بين ١٤، ١٦ سنة دربوا على كل هذه العمليات وأصبح كل واحد منهم مسئولا عن غزل ما بين ١,٢٠٠ و ١,٥٠٠ ياردة فى اليوم ، أى بمعدل ٢٥ إلى ٣٠ « شلة » . وقد علمت من مدير بيت ريماند ، أن هناك كثيراً من التقدم ظهر واضحاً فى أخلاق وسلوك الأولاد منذ أن عملوا بانتظام مع إعطائهم بعض المكافآت . إن خطاب الآنسة بريسكو يتحدث عن نفسه ، ولن أضيف عليه شيئاً . وهاآنذا أرفق طيه خطابها » .

قالت مس بريسكو فى خطابها . « طلبت منى نقابة الغزالين الهنود أن أحيطك علماً بنواحى الغزل التى تقوم بها فى المدرسة التى أنشأتها النقابة .

١ ـ بدأنا الدراسة لتعليم الغزل فى ١٥ يناير ١٩٤٠ .

٢ ـ تختلف أعمار التلاميذ ما بين ١٤ ، ١٦ عاماً ، وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما لاحظنا أنهم سعداء أثناء عمليات الغزل .

٣ ـ قبل ذلك كان الأولاد لا يجلدون أى عمل ينشغلون به ، كما أننا لم يمكننا أن نبدأ بصناعة تكلفنا غالياً . أما الآن فإنهم سعداء فى عملهم غير راغبين ، كما يظهر لى ، فى الهروب من المدرسة .

٤ ـ والآن فإن الواحد منهم يكسب فى الخمس ساعات عمل يومياً مبلغ ٢ (أناس) علاوة على أنه يأخذ ثلاث فطائر ليأكلها فى اليوم . هذا مع أنهم يدفعون المبلغ الذى صرف مقدماً على العمل فى صناعة الغزل . إنهم يعطون بعض المبالغ القليلة ، أما بقية المبالغ فإنها توفر لهم فى حساب خاص . وبما أن هذه التجربة أظهرت نجاحاً مع الأولاد ، فقد بدأنا هذا الأسبوع تدريس الغزل للشابات المقيمات فى « مؤسسة الأحداث للبنات » . وقد تخيلنا أنك سوف تكون مهتما بهذا الموضوع ، لذا فإنى أرسل إليك هذا الخطاب ومرفق به صورة

فوتوغرافية للأولاد الذين يقومون بعمليات الغزل . ولا شك أنك مقدر السعادة التي تعلو وجوههم » .

هناك براهين دامغة لتدلك على مدى العلاقة بين ما ذكر أعلاه وبين التأثير المستمر للغزل فى حياة الأفراد . وإنى أرجو أن تستمر الآنسة بريسكو فى إرسال تقارير دورية عن تقدم تجربتها .

٤٤ ــ واحة فى الصحراء :

فى بحر لجيّ من النقد العقيم والأفكار غير المنصفة التى تدور فى مخيلة المسئولين فى الحكومة تجاه التربية الأساسية ، أسعدنى كثيراً أن أتلقى تقريراً عن مدارس التربية الأساسية فى ولاية بهار بعثه إلينا الأستاذ كوزنير الذى يعمل مستشاراً لحاكم بهار . وقد تسلم هذا الخطاب شرى أرايانايا كام سكرتير مدارس سانج الهندوستانية :

« إنى أحس بالأسف من أن برنامجى للتفتيش على مدارس التربية الأساسية قد أصابه التعديل من جراء الأمطار الغزيرة ، وكان لزاماً على أن أختصر فى الوقت المحدد لتنفيذ هذا البرنامج . ورغماً من كل ذلك ، فقد تمكنت من مقابلة مدرسى وتلاميذ ثمانى عشرة مدرسة من السبع والعشرين مدرسة ، منها ست مدارس فى بريندبان ــ زامابيورا ، واثنى عشر مدرسة فى تشوبيتولا ــ باروكيا ، وقد كنت شغوفاً جدا أثناء رؤيتى لنشاط هذه المدارس . وطبيعى أنه لن يمكننا أن نصدر أحكاماً عامة على هذه التجربة قبل أن تكمل السبع سنوات التى وضعت لها . ولكنى تأثرت كثيراً من النظافة والذكاء والسعادة الظاهرة على وجوه التلاميذ أثناء عملهم . إنى مطمئن تماماً بأننا نسير فى الطرق القويمة ، وأن الأطفال الذين يبلغون ١٤ عاماً والذين تعلموا عن طريق مناهج التربية الأساسية لن يفشلوا إذا قورنوا بهؤلاء التلاميذ فى سنهم الذين التحقوا بالمدارس العادية » .

« هناك ظاهرة مشجعة ، وهذه الظاهرة أعلق عليها آمالا كباراً ، وهى أن المدرسة قد نجحت دون شك فى إثارة وعى واهتمام القرية بها . وما دامت هذه التجربة تحافظ على هذه الظاهرة فإنه من المستحيل أن تنتهى بالفشل . إن الروح العامة هى التى دفعت الملاك والقرويين إلى تزويد المدرسة بهذه الساحات الرياضية الممتازة ، وتمهيد الطرق ، وتوفير الملابس والإمكانيات اللازمة لتلاميذ الكشافة بالمدرسة . وهى من أكبر فرق الكشافة التى رأيتها . وعلاوة على ذلك فإن التلاميذ فى القرية يصرون على مواصلة الذهاب إلى المدرسة بانتظام ودون انقطاع . ومما لا شك فيه أن الرأى العام فى القرى التى بها هذا النوع من المدارس والتى لم تمكننى الظروف لزيارتها لا تقل حماساً عن روح الرأى العام فى القرى التى قمت بزيارتها . إنى مطمئن تماماً بأن مجهودات القرويين سوف يكون لها ثمرة طيبة فى حياتهم . وبجانب التعليم فى معناه العادى ، فإن أطفال المستقبل من القرويين سيتصفون بصفات طيبة مثل — عقل متيقظ ، ومهارة فى العمل اليدوى ، وصحة جيدة ونظافة دائمة . كما وأن هذه المجهودات سوف تؤثر فى جعل القرويين أكثر تمتعاً بصحة طيبة ، وأكثر حرصاً على الحياة فى مساكن صحية يدخلها الضوء والهواء عما كانوا عليه فى الماضى » .

٤٥ — التعليم عن طريق الحرف :

أرسل إلى شريمانى أشاديفى الإحصاءات الهامة الآتية :

« إن ٢٧ مدرسة أساسية فى منطقة واحدة من إحدى مناطق ولاية بهار قد أكملت ثلاث سنوات من العمل فى أبريل ١٩٤٢ . إن جدول الدخل السنوى للسنوات الأولى والثانية والثالثة لهذه المدارس فى سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢ كان مجالا هاماً ليدرسه جميع الذين يعملون فى ميدان التربية الأساسية . إن الجدول سوف ينشر فى مجلة « التعليم الجديد » وهى المجلة الشهرية الدورية للتربية الأساسية

وهنا سوف أعرض مختصراً للحقائق الرئيسية لجميع الذين يهتمون بتقدم التربية الأساسية . إن متوسط الحضور فى هذه المدارس هو ٧٠٪ فى السنة الأولى ، ٧٦٪ فى السنة الثانية ، ٧٩٪ فى السنة الثالثة . أما متوسط دخل الفرد فإنه يبلغ ٧ قروش[1] فى السنة الأولى ، ١٦,٦ قرشاً فى السنة الثانية ، ٤٤,٥ قرشاً فى السنة الثالثة . وإن مجموع دخل ٣٩٠ تلميذاً (هذا العدد مبنى على أساس متوسط عدد الحضور) من مجموع عدد ساعات العمل التى تبلغ ١٠,٢٦٤ فى جميع المدارس هو ١٩,٦٢ جنيهاً مصرياً للسنة الأولى — وإن مجموع دخل ٣٥٦ تلميذاً (هذا العدد مبنى على أساس متوسط عدد الحضور) من مجموع عدد ساعات العمل التى تبلغ ١٤,٥٨٢ فى جميع المدارس هو ٥٩,٠٢ جنيهاً للسنة الثانية — وإن مجموع دخل ٣١٩ تلميذاً (هذا العدد مبنى على أساس متوسط عدد الحضور) من مجموع عدد ساعات العمل التى تبلغ ١٤,٣٦٢ فى جميع المدارس هو ١٤١,٩٦ جنيهاً للسنة الثالثة . أى أن مجموع دخل ١,٠٦٥ طفلا يبلغ ٢٢٠,٦ جنيهاً فى كل السنة . وإن أعلى متوسط لدخل الفرد فى هذه المدارس يبلغ ١,١١ جنيهاً فى السنة الثالثة ، ٤٥ قرشاً فى السنة الثانية ، ١٩,١ قرشاً فى السنة الثالثة . وإن متوسط أعلى سرعة هو ٤٨٠ لفة فى الساعة على آلة الغزل و ٢٨١ لفة فى الساعة على آلة الغزل Takli لتلاميذ السنة الثالثة — و ٣٥٠ لفة فى الساعة على آلة الغزل هذه و ٢٤٢ لفة فى الساعة على آلة الغزل لتلاميذ السنة الثانية — و ١٦٤ لفة فى الساعة على نفس آلة الغزل لتلاميذ السنة الأولى » .

لم نعرض هذه الإحصاءات لنبين الإيرادات والمصروفات بقدر ما نبين نشاط هذا النوع من المدارس . إن المصروفات والإيرادات تحتل مركزاً ثانوياً فى المناهج التعليمية للتلاميذ . والمقصود من عرض هذا الجدول هو أن نوضح القيمة التعليمية الكبيرة للصناعات الريفية كوسيلة لتدريب الصغار والشباب . ومما هو واضح أنه بدون الصناعة فإن العناية والاهتمام بتفاصيل العمل لن يحققا فى التعليم .

[1] حسبت الروبية الهندية بمبلغ ٧,٢٣٣ قرشاً — المترجم .

الفصل السابع

التربية الأساسية فى المرحلة الثانوية والجامعية

٤٦ – مؤتمر الوزراء والتربية الأساسية فى المرحلة الإعدادية :

دعى وزراء التربية والتعليم من برلمانات الولايات لحضور مؤتمر فى قاعة البلدية ببلدة بونا من ٢٩ يوليو إلى ٣٠ يوليو ١٩٤٦ برئاسة شرى خير . وقد حضر غاندى إلى المؤتمر لمدة ساعة بعد ظهر يوم ٢٩ يوليو ١٩٤٦ .

وفى اجتماعه الأول مع أعضاء « Talimi Sangh »، بعد أن أفرج عنه من المعتقل ، أعلن غاندى أن المرحلة الأولى من التربية الأساسية قد حققت ، وأن المرحلة الثانية ينبغى أن نبدأ فى التوسع فيها . وقال إن عليهم إدخال التربية الأساسية فى برامج المرحلة الثانوية والجامعية . إن التربية الأساسية ، كما وضحها لهم غاندى ، ينبغى أن تكون تربية للحياة . ومن هذه النقطه شرح غاندى للمؤتمر فى خطابه إلى أى حد ينبغى أن يأخذ التوسع طريقه فى ميدان التربية الأساسية ، وما هى واجبات الوزراء فى هذا الصدد . وقد أجاب عن سؤال دكتور زاكير حسين الذى أثار موضوع الحماس المتدفق من البعض ، ونبه الأذهان إلى أنهم لا ينبغى عليهم أن يتوسعوا فى المشروع قبل أن يعدوا العدة له . فإن البرنامج الذى يوضع على أساس من الطموح الزائد دون أن تهيأ له وسائل التنفيذ اللازمة غالباً ما تكون نهايته خطرة بل تؤدى أحياناً إلى عكس ما نصبو إليه .

« إذا كنت وزيراً »

صرح غاندى بأنه يعرف بالضبط ما ينبغى أن يؤدى ، ولكنه لا يعرف تماماً كيف يؤدى . وبما أن كل شىء قد وضع على الخريطة لهم ، فإن عليهم الآن أن يسيروا فى هذا البحر الخضم . إنه يعلم تماماً الصعوبات التى يواجهونها . فليس من السهل على هؤلاء الذين تعلموا على أسس من التقاليد القديمة أن يتحرروا منها بين ليلة وضحاها . واستطرد غاندى قائلا إنه لو كان وزيراً للتربية والتعليم لأصدر تعليمات عامة تحث بأن النشاط التعليمى فى مدارس الحكومة ينبغى أن يكون على أساس من مبادئ التربية الأساسية . ثم قال إن تعليم الكبار بدأ يأخذ مجراه فى مديريات عديدة، ولذلك فإنه ينصح بأن يأخذ تعليم الكبار طريقه فى القرى عن طريق تعليم حرفة أساسية . ومن رأيه أن غزل القطن والعمليات التى ترتبط به تعتبر حرفاً تخدم أغراضه فى تعليم الكبار . ولكنه يرى أن يترك الكبار ليختاروا الحرفة التى يرغبونها معتقداً بأنه فى نهاية فترة التعليم فإن الحرفة التى رغب أن يتعلمها الراشد والتى انبعثت من حاجاته لاشك أنها ستخلد طوال حياته . ينبغى أن تكون وظيفة المفتشين والمسئولين فى إدارة التربية والتعليم أن يتصلوا بالأهالى والمعلمين فى المدارس ، وعن طريق الدعوة والإقناع سوف يعلمونهم قيمة سياسة الحكومة الجديدة فى التعليم . هذه هى وظيفتهم الأساسية بدلا من أن يفرضوا سياسة الحكومة على الأهالى والمدرسين . فإذا رأى الوزير أن أى مسئول لديه غير مقتنع بهذا الاتجاه أو غير مستعد ليقوم بتنفيذه بصدق وإيمان فعليه أن يترك له حرية الاستقالة . ولكن غاندى يرى أن الوزير لن يلجأ إلى ذلك عندما يضع يده فى أيديهم ويوجههم وجهة صحيحة . إن فرض الأوامر لن يؤدى إلى تحقيق الغرض المطلوب .

إعادة توجيه التعليم الجامعى

ما قاله غاندى عن التربية الأساسية يمكن أن يطبق على التعليم الجامعى الذى ينبغى أن يتلاءم مع البيئة الهندية . لذا ، فإنه ينبغى أن يكون امتداداً واستمراراً للتربية الأساسية . وإن لم يتفق الوزراء مع رأيه فى هذا الموضوع ، فإنه يخشى أنهم لن يستفيدوا إلا قليلا من نصائحه . ومن جهة أخرى ، فإذا اتفقوا مع غاندى بأن النظام الحالى للتعليم الجامعى لا يتفق مع الإستقلال الذى ننشده ، بل يتفق مع استعباد الطابة ، فإن على الوزراء ألا ينتظروا ويصبروا على ذلك بل عليهم أن يقوموا بتعديل وتغيير شامل فى النظام الجامعى وأن يعيدوا بناءه على أسس جديدة تتلاءم مع مطالب الأمة وآمالها .

إن شباب اليوم الذين درسوا العلم فى جامعاتنا أصبحوا إما طلاب وظائف فى دواوين الحكومة ، وإما أنهم اتخذوا الطرق المنحرفة ليجدوا فيها متنفساً لاضطراباتهم ودوافعهم غير المستقرة . ولم يجدوا حرجاً فى أن يستجدوا أو يتطفلوا على الآخرين . هذا هو وضعهم المحزن . إن هدف التعليم الجامعى هو أن يخرج خداماً صادقين للشعب ، شباناً يعيشون ويموتون من أجل حرية الوطن . لذا ، رأى غاندى أن التعليم الجامعى يجب أن ينسق مع مبادئ التربية الأساسية ، ويطعم بالمعلمين الذين يدرسون فى مدارس التربية الأساسية .

ثم استطرد غاندى قائلا إن الوزراء قبلوا العمل فى مكاتبهم كسفراء للشعب . وإن عملهم الآن لن يتعدى الحوائط الأربعة لمكاتبهم إن لم يشركوا الناس معهم فى تحمل المسئوليات . وما يجرى اليوم فى ولايتى بومباى وأحمد أباد يكشف عن ظاهرة تنذر بالسوء نتيجة لأن البرلمان لم يدعم علاقته مع الشعب . إن سياسة التعليم الجديدة ما هى إلا بذرة صغيرة سوف تنمو وتترعرع وينتظر أن نجنى منها

أطيب الثمرات . وإن نمو هذه السياسة لن يأخذ طريقه القويم باستخدام القوة والقوانين الوزارية . ولذا ، فإن لم يكن لديهم المقدرة على كسب ثقة الرأى العام ، فنصيحة غاندى إليهم تتلخص فى وجوب تقديم استقالاتهم . ينبغى على الوزراء ألا يخشون عواقب اللامركزية ، فعليهم أن يؤدوا أعمالهم بإخلاص وإيمان ويتركوا ما تبقى على الله . إن الشعب سوف يتعلم الدروس فى الاستقلال الحقيقى حتى عن غير طريق هذه الخبرات الجامعية .

٤٧ — نحو جامعات جديدة :

يخيل إلىّ أن هناك توسعاً كبيراً فى إنشاء جامعات جديدة فى الولايات الهندية . إن كل وزير يطمع فى أن يتوج ولايته بإنشاء جامعة جديدة لها . إنى أومن بوجوب إنشاء هذه الجامعات إذا كانت اللغات الغنية التى يتكلم الشعب بها لها مكان بارز فى التدريس بالجامعات .

وفى الوقت ذاته أخشى أن يكون قد خنا العهد عندما نتسرع فى تنفيذ هذا المشروع . إن أول خطوة ينبغى اتباعها هى إعادة تقسيم الولايات من حيث السياسة واللغة ، وإن إدارتها المستقلة سوف تقود من تلقاء نفسها إلى إنشاء الجامعات فى الولايات التى حرمت من وجودها . فمثلا ، نجد ولاية بومباى بها ثلاث لغات قومية : جو جاراتى Gujarati ، ماراثى Marathi ، كاناد Kannad تعطل من نموها وتطورها . وولاية مدراس بها أربعة لغات تاميل Tamil ، تيلوجو Telugu ، مالا يالوم Malayalom ، وكناد Kannad ، وهناك لغات أخرى علاوة على ذلك . إن إندرادش بها جامعة إندرا ، وفى رأيى أن هذه الجامعة لم تحتل المكان اللائق بها ، ولن تحتله إلا إذا كان لها إدارة مستقلة متحررة من التحكم الأجنبى . إن الهند حصلت على استقلالها فى الشهرين الماضيين فقط ، ونفس الشىء يمكن أن يقال على جامعة أنامالاى — ومن يقول إن هذه الجامعة مستقلة تماماً ؟

ينبغي أن تتجه جامعاتنا الجديدة اتجاها سليماً ، وذلك بأن تلحق بها معاهد وكليات تدرس المناهج باللغات الموجودة فى الولايات المنشأة بها . وهكذا لن يمكنها أن تأخذ مكاناً كبيراً إلا عن هذا الطريق . ولن تصل جامعاتنا إلى القمة المرجوة إلا إذا بنيت قواعدها على أساس متين .

ورغم أننا تحررنا سياسياً ، إلا أننا لم نتحرر بعد من سيطرة الغرب . لا يوجد عندى ما أقوله لهذه المدرسة التى تضم السياسيين ، والتى تؤمن بأنه المعرفة لا يمكن أن يكون مصدرها غير الغرب . كما وإنى لا أقر إيمان البعض بأن لا يوجد شىء طيب يمكن الحصول عليه من الغرب . ومهما كان الأمر فإن ما أخشاه هو أنه لن يمكننا أن نصل إلى قرار مناسب فى هذا الموضوع . وإننا نرجو أن لا يوجد أحد بيننا يصر على أنه ما دمنا قد تحررنا سياسياً من الاستعمار الأجنبي فمن البديهى أن نكون قد تحررنا من تأثير اللغة الأجنبية وتأثير الفكر الأجنبي . أليس من الحكمة أن نقف ونفتح رئتينا أولا لاستنشاق الهواء الجديد للحرية قبل أن نبدأ فى إنشاء جامعات جديدة ؟ إن الجامعة لن تحتاج إلى مبانى فخمة وكنوز من الذهب والفضة ، بل جل ما تحتاجه تعضيد الأهالى لها . ولا شك أنها تحتاج إلى أساتذة كثيرين ليعملوا بها ، وإن هؤلاء المؤسسين من الأساتذة ينبغي أن يكونوا واسعى الأفق والمعرفة .

أما عن رأيى الخاص ، فإنه ليس من مبادئ الدولة الديموقراطية أن تصرف من أموالها لبناء الجامعات . فإذا أراد الناس أن يقيموا جامعات فى ولاياتهم فعليهم أن يتحملوا مسئوليات التمويل . مثل هذه الجامعات سوف تفخر بها الدولة التى تقدمها للرأى العام العالمى . فعندما تكون الإدارة فى أيد أجنبية ، فإن أى شىء يقدم للناس إنما يقدم إليهم من أعلى ، وهكذا يصبح الشعب شيئاً فشيئاً معتمداً على الغير . ينبغي أن نبنى الجامعات على قواعد راسخة من إرادة الأهالى ، فإن كل شىء ينبعث من أسفل ينمو ويترعرع ويصبح خالداً . هذه هى النظرة الصحيحة التى تقوى من حياة الشعوب . بمثل هذا المشروع

الديموقراطى ، فإن الأموال التى جمعت للتوسع فى التعليم فسوف تدر عشرات الأضعاف من محصولها على الشعب — مثلها فى ذلك مثل الحبة التى تزرع فى أرض طيبة ويحصد منها محصول طيب . إن الجامعات التى أنشئت تحت إدارة أجنبية إتجهت اتجاهاً عكسياً ، وبالطبع هذا هو المصير المنتظر لها . وهكذا ، فإن لدى كل المبررات التى تجعلنى حذراً نحو بناء جامعات جديدة حتى تستوعب الهند الحرية الجديدة التى حصلت عليها .

لنتناول سؤال علاقة المسلمين بالهندوستانية فى الدراسة . إن السم الذى يوضع لنا هو الخطر من التكوين الجديد للهند بعد نيل الحرية . وإذا فكرنا فى هذا الاتجاه فإنه سيصعب علينا أن نتنبأ بأى أرض سترسو سفينتنا . لنفرض أنه حصل المحظور ولم يرغب أى مسلم أن يمكث فى الاتحاد فى سلام وبشرف ، وكذلك لم يشأ أى من الهندوستانيين والسيخ المكوث فى باكستان . وعليه فإن تعليمنا سوف يصبح سُماً للجميع . ومن جهة أخرى فإذا تمكن الهندوستانيون والمسلمون وكل ما ينتمون إلى أديان ومذاهب مختلفة أن يعيشوا فى أى من الدولتين ، الهند وباكستان ، بشرف وأمانه كاملين فإن هذا معناه أن التعليم سوف يأخذ شكلا طيباً يدخل السرور على الجميع . إما أن الناس أصحاب المذاهب المختلفة يعيشون معاً فى جو من الصداقة وينتجون ثقافات جميلة متعددة ، وهذا ما نحاول بكل ما فى استطاعتنا تحقيقه وتقويته على الدوام — وإما أننا سوف ننتظر اليوم الذى يوجد به دين واحد هندوستانى ونتعقب جذوره ونجعل منه ثقافة مقصورة عليه . وقد يكون من المستطاع أن نعثر على تراثنا القديم إذا تتبعنا خطوات تاريخ نموه . وإذا عثرنا على هذه الخطوات ، فإننا سوف نرجع ثقافتنا ثانية إلى العصور البدائية . ومن جراء ذلك فسوف نستحق ازدراء واحتقار العالم . فمثلا ، فإذا قمنا بمحاولة خاسرة لتشويه العصر الإسلامى ، فإنه ينبغى علينا أن نتناسى بأن هناك مسجداً أثرياً عظيماً فى دلهى يسمى مسجد جوما لا يضاهيه فى الجمال أى آثار فى العالم ، أو أن هناك

جامعة إسلامية أنشئت في اليجارة ، أو أن هناك تاج مجال فى أجراء يعتبر من العجائب السبع فى العالم، أو أن هناك قلعة ضخمة فى كل من دلهى وأجرا بنيتا أثناء عصر المغول . وإذا قبلنا هذا التشويه فى الحقائق التاريخية علينا إذا أن نكتب ثانية تاريخنا بهذه الاتجاه غير الأمين . ومن المؤكد به، أن الحالة الحاضرة لن تمكننا من أن نصل إلى نتيجة طيبة حول التناقض الظاهر فى الفرص التى أمامنا . إننا نجاهد فى أن الحرية التى حصلنا عليها منذ شهرين ينبغى أن تأخذ شكلا ، ولكننا لا نعرف أى الأشكال سوف تنتهى إليه . وإلى أن نعرف ذلك نهائياً ، فإنه يكفى أن ندخل بعض التعديلات كلما أمكننا ذلك فى الجامعات الموجودة فى الهند ، حتى نحس أن فى منظماتنا التعليمية الحالية روح الحرية والقوة . إن الخبرات التى سوف نتزود بها ستعيننا عندما يجىء الوقت المناسب لإنشاء جامعات جديدة .

ولذا فإنى أرجو مخلصاً أن يصل جميع المربين إلى النتيجة التى تحتم علينا الإنتظار والتروى فى بناء جامعات جديدة .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

التربية الأساسية

للمهاتما غاندى

شرح غاندى فى كتابه هذا فلسفته فى التعليم وقد استمد جذورها من التعاليم المثالية التى آمن بها، والاتجاهات السياسية التى وقف لها حياته. وقد شاء أن يضم فى هذا الكتاب النظم التعليمية التى يراها جديرة بالدراسة والبحث والتطبيق فى سبيل تحرير الأطفال والشباب والكبار من سيطرة المناهج التربوية الغربية، والسياسة الاستعمارية التى قوضت أركان المثل العليا التى يؤمن بها الشعب الهندى. ولقد آمن غاندى أشد الإيمان بضرورة ربط التعليم الابتدائى والثانوى والجامعى بعجلة الحياة التى تدعو إلى الكفاح والعمل. فوجد أن خير وسيلة لتنشئة جيل صالح من المواطنين ترتكز فى احترام العمل اليدوى وتقدير المهن العملية التى يمكن عن طريقها أن تتحرر الهند اقتصادياً وبالتالى سياسياً وثقافياً. وقد عالج المؤلف هذه الموضوعات بروح مؤمنة وأسلوب مقنع وفلسفة عميقة.

● ظهر منها:

اتجاهات فى التربية والتعليم — للدكتور محمد جمال صقر

التربية الأساسية — للمهاتما غاندى — ترجمة الدكتور محمد الشبينى

دار المعارف للطباعة والنشر